NARRITAVE OF THE LIFE OF FREDRICK DOGLASS

مذكرات عبد أميريكي

قصة حياة فريدريك دوجلاس

ترجمة: إبراهيم عبد المجيد | تقديم: وليم اللويد جاريسون

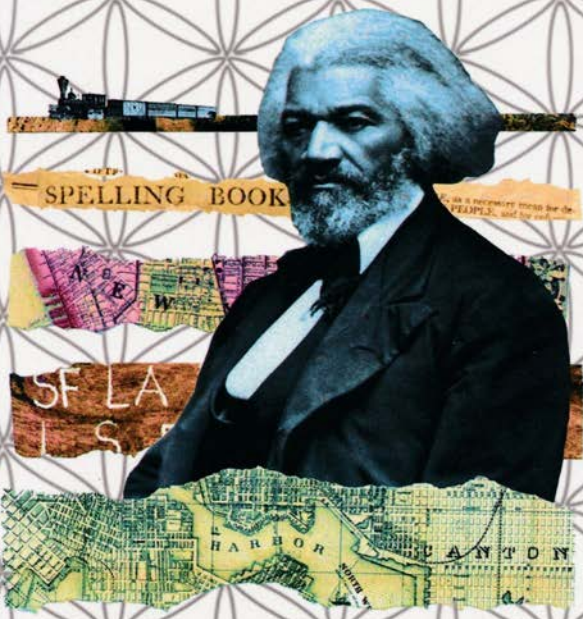

مكتبة 1216

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع

مذكرات عبد أميركي

«فريدريك دوجلاس»

ترجمة: إبراهيم عبد المجيد

الإشراف العام:
زياد إبراهيم
المراسلات:
الدور الثانى شقة 3
71 ب - حدائق الأهرام - البوابة الأولى (بوابة خوفو) - طريق الفيوم - الجيزة
البريد الالكترونى:
ziad.meguid@gmail.com
Baitelyasmin@gmail.com
تليفون:-
(+2) 011100 94 62 5
(+2) 010166 85 58 3

اسم الكتاب:
مذكرات عبد أميريكي
تأليف: فريدريك دوجلاس
ترجمة: إبراهيم عبد المجيد
الناشر:
بيت الياسمين للنشر والتوزيع
رقم الإيداع:
2015/ 23981
الترقيم الدولى:
978-977-6402-94-2
حقوق الطبع محفوظة.
كل ما يرد داخل هذا الكتاب من آراء أو أفكار هو مسؤولية الكاتب وحده، ولا يعبر بالضرورة عن التوجهات والسياسة التحريرية للدار.

مكتبة
t.me/soramnqraa

21 6 23

مكتبة | 1216

قصة حياة فريدريك دوجلاس «عبد أميركي»

NARRITAVE OF THE LIFE OF FREDRICK DOGLASS «AN AMERICAN SLAVE»

بيت الياسمين
للنشر والتوزيع

www.byasmin.org

مقدمة المترجم

شيئان في تاريخ أمريكا لا مثيل لهما في تاريخ أمة من الأمم، الأول هو إبادة الهنود الحمر (السكان الأصليين للقارة)، والثاني هو استعباد الزنوج.

لقد انتهى أثر الهنود- تقريبا- ولم يبقَ منهم غير جماعات هامشية توجد أساسا في جنوب القارة، باختصار فإنهم تعرضوا للإبادة الجماعية، ولم يكن الحال كذلك مع الزنوج، فتاريخيًا هم أحدث ظهورًا على مسرح الأحداث- في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر- وغرباء عن القارة جُلبوا إليها من إفريقيا في رحلات كبرى لاصطيادهم من مواطنهم، وحشرهم- في ظروف أقل من الحيوانية- داخل السفن التي تعود بهم إلى موانئ الجنوب الأمريكي، حيث يباعون في مزادات علنية، لقد قامت في أمريكا تجارة كاملة للزنوج، لها مؤسساتها ورجالها ونُظمها، وغَذَّتْهَا فلسفةٌ عنصريةٌ تتشدق بالدور الحضاري والمتميز للرجل الأبيض.

لقد وجدت مأساة الزنوج شكلها الأكبر في ولايات الجنوب، في كل الولايات تقريبا شمالا وجنوبا كان هناك إحساس بالتميز عند الرجل الأبيض، لكن في الجنوب فإن المأساة كانت حقيقية وكاملة، حيث تجارة العبيد واستغلالهم في المزارع الواسعة، ومنذ وقت قريب شغلت العالم كله رواية جذور للكاتب الأمريكي- الزنجي- أليكس هيلي، خاصةً حين تحولت

إلى مسلسل تليفزيوني أخّاذ، لقد أعادت الرواية والمسلسل إلى الأذهان صورة المكابدات العظمى للزنوج تحت وطأة نظام لم تعرف الإنسانية مثل بشاعته، ألا وهو العبودية في العصر الحديث»!

لقد كان للحرب الأهلية الأميركية- في ستينيات القرن التاسع عشر- الدور الحاسم في الإنهاء رسميًا على تجارة العبيد، وفي تحريرهم، ولكن ظلت في الوجدان الأميركي كراهية للملونَين، وظل الزنوج- لوقت طويل، وحتى الآن- يجدون ألوانًا مختلفة الدرجات من التفرقة والتمييز.

لقد اختلف موقف المستوطن الأمريكي من الزنوج عنه من الهنود، ففي الوقت الذي أباد فيه- بوحشية لا مثيل لها- القبائل الهندية ذات الثقافات القديمة الغنية، وأصحاب الأرض الأصليين، فإنه لم يعمل على إبادة الزنوج، بل هو الذي أدخلهم إلى القارة، وكان يعتبرهم جزءًا من قوته ورأسماله، وحتى يتم له ذلك، جاهد ببشاعة لمحو ثقافتهم وطمس أي أثر يدل على علاقة- من أي نوع- لهم بالجنس البشري!

من بين هؤلاء الزنوج حاول الكثيرون الهرب إلى الولايات الشمالية، وإلى كندا، ومن بين الذين نجحوا في الهرب، كان فريدريك دوجلاس، مؤلف هذه السيرة وصاحبها، لكنه كان مختلفًا عن غيره، لقد كان فهمه للعبودية مبكرًا، وكان هروبه مبكرًا أيضا، ولقد انضم في الشمال إلى الجماعات المناهضة للعبودية، وأصبح من أكبر رجالها وخطبائها، وقائدًا متحمسًا

لبني جنسه من الملونين، ثم أصبح وزيرًا في الحكومة الاتحادية بعد الحرب، كتب بعد ذلك My Bondage and My Freedom عام ١٨٥٥ ثم Life and Times of Fredrick Doglass عام ١٨٨٨ وتوفي عام ١٨٩٥.

إنها قصة قديمة مضى عليها أكثر من قرن ونصف القرن من الزمان، لكنها لم تزل حية نابضة، فهي قصة روح معذبة، واضطهاد لا مثيل له، لا يكتبها إلا من عاشها وكابدها.

إنها تُصَوِّر- بصدق بالغ الأثر- فظاعة الحياة في المزارع الواسعة في الجنوب الأميركي تحت مظلة العبودية، وتضرب عميقا في النفاذ إلى جوهر العبودية، والأعمال اللا إنسانية لملاّك العبيد، وتصور- بأعظم ما تتصور- كيف كانت عذابات روح الكاتب وهو يتطلع إلى الحرية والمجهود الجبار الذي فعله ليصل إلى ذلك، كيف توصل إلى تاريخ ميلاده، كيف تعلم القراءة والكتابة، كيف صور بشاعة وأهوال ما حوله، وتفاصيل كثيرة أتركها للقارئ في الكتاب الذي أحدَثَ هزة كبيرة وقتها في الأوساط الأميركية والذي لم يفقد روحه بعد، وهذه السيرة وإن كانت تفسر لنا لماذا تعاني أميركا الآن من آثار الماضي، فلعلها أيضًا تفسر لنا سلوك أميركا مع الأمم الصغيرة هذه الأيام.

إبراهيم عبدالمجيد،،

مكتبة
t.me/soramnqraa

مقدمة بقلم: ويليام اللويد جاريسون

في نوفمبر عام ١٨٤١ دعيتُ إلى اجتماع مناهض للعبودية في ولاية نانتوكت»، في هذا الاجتماع سعدت بالتعرف إلى فريدريك دوجلاس كاتب السيرة التالية، لقد كان غريبًا تقريبًا عن كل أعضاء ذلك الاجتماع، وكان هاربًا حديثًا من سجن العبودية في الجنوب، ويتشوق إلى تأكيد مبادئ وقيم المناهضين للعبودية، الذين سمع عنهم بعض التفسيرات الغامضة حين كان عبدًا، هذا ولقد دُعي للاجتماع وسُمح له بالحديث، رغم أنه كان يعيش- ذلك الوقت- في نيوبدفورد.

لقد كان من حسن الطالع، حسن الطالع للملايين من إخوانه المقيدين المتلهفين للخلاص من استعبادهم المرعب، ومن حسن الطالع لقضية تحرير الزنوج وللحرية في العالم، ومن حسن الطالع للدائرة الكبيرة من أصدقائه ومعارفه الذين لاقى تعاطفهم وتجاوبهم في كثير من المحن التي ألمت به، من حسن الطالع أن تكون لمستر دوجلاس هذه السمات الفاضلة في شخصيته، وأن يتذكر دائما أولئك الذين لا يزالون مُصَفّدين في الأغلال وكأنه مغلول معهم، ومن حسن الطالع للجموع في مناطق مختلفة من جمهوريتنا، أولئك الذين أضاء عقولهم بالحديث عن العبودية، والذين ذابت دموعهم تعاطفا معه، وأثار غضبهم ببلاغته في الحديث عن مستعبدي البشر! ومن حسن الطالع له، لأن ذلك وضعه فورًا في ميدان

العمل العام، الذي أعطى العالم رجلاً أكيدًا»، وأثار الطاقات النائمة في روحه، وكرّسه- شخصيًا- للعمل العظيم في تحطيم طريق المضطهدين، وشق طريق الحرية للمضطهدين.

لن أنسى أبدًا خطبته الأولى في الاجتماع، والانفعال غير العادي الذي أثارته في ذهني، والانطباع القوي الذي خلفّته بين المشاهدين المزدحمين الذين أخذتهم المفاجأة تماما فتوالى تصفيقهم من البداية وحتى النهاية خلال حديثه الموفق.

أعتقد أنني لم أكره الرق بكثافة من قبل قط، مثلما حدث في تلك اللحظة، وبالتأكيد فإن تصوري عن الفظاعات الضخمة التي تمارسها العبودية على ضحاياها من المخلوقات الطيبة، قد ازداد استنارة عن ذي قبل، في هذا الاجتماع وقف رجل ذو هيئة طبيعية هائلة، طويل متسق الجسد، يقدم- في موهبة طبيعية غنية- خطبة بالغة خارقة، وفي روح بدت أرق من الملائكة، رغم أنه عبد، نعم عبد هارب يرتعش طلبًا للأمن، ولم يزل يجد مشقة في الاعتقاد، بأنه من الممكن أن يوجد على الأرض الأميركية رجل أبيض يمكن أن يصادقه رغم كل الأخطار، حبا في الله والإنسانية! إنه رجل ذو معارف مكتسبة عالية في الثقافة والأخلاق، لا يحتاج شيئًا غير بعض اللمسات البسيطة، لتجعل منه مفخرة للمجتمع، وبَرَكة لبني جنسه، وقد كان هذا الرجل من قبل- أمام قوانين هذه الأرض، والناس، ومعايير العبودية- مجرد قطعة من الأملاك، دابة، متاعًا شخصيًا وليس أكثر!

لقد أقنع أحد الأصدقاء من نيوبدفورد مستر دوجلاس بأن

يخطب في الاجتماع، فتقدم إلى المنصة في تردد وارتباك يشيران إلى عقل حساس وجد نفسه في مكان جديد عليه، وبعد اعتذاره عن جهله، وتذكيره للحاضرين أن العبودية كانت مدرسة فقيرة للقلب والعقل البشريين، بدأ يسرد بعض الحقائق من تاريخه الخاص كعبد، وخلال حديثه، أظهر عددًا من الأفكار النبيلة، والتأملات المؤثرة في النفس.

وما كاد يعود إلى مكانه ممتلئا بالأمل، محاطا بالإعجاب، حتى وَقفتُ وأعلنتُ أن باتريك هنرى، الثائر المشهور، لم يقدم في موضوع الحرية، خطبة أكثر فصاحة من التي استمعنا إليها الآن، من فم ذلك الهارب المطارد، بذلك آمنت في ذلك الوقت- وهذا إيماني حتى الآن- وذكّرتُ الحاضرين بالأخطار التي تحيط بهذا الشاب الذي حرر نفسه، في الشمال الأمريكى، وحتي في ولاية ماساشوسيتس، أرض الآباء الحجاج الأول، وبين أخلاف الآباء الثوار، وحمّستهم ألا يسمحوا أبدا أن تتم إعادته مرة أخري إلى أسر العبودية، سواء كان ذلك عن طريق قانوني أو غير قانونى، دستوري أو غير دستوري، وكانت الاستجابة بالتأييد، وفي صوت كالرعد انطلقت كلمة لا، «قلت هل تغيثونه وتحمونه كأخ، ومواطن للولايات القديمة المجيدة ؟ فصاحوا بطاقة هائلة نعم»، ولابد أن طغاة الجنوب قساة القلب، على خط ماسون وديكسون- الخط الفاصل بين الشمال والجنوب في الولايات المتحدة الأمريكية - قد سمعوا هذا الانفجار المقدس للمشاعر، وتعرفوا عليه كعهد وقسم لايتزعزع من جانب أصحابه، على

ألا يخونوه أو يضلوه عن طريقه، ولكن يحسونه، ويواجهون العواقب بشجاعة، لقد فكرت عميقا في الحال لو استطاع مستر دوجلاس أن يكرّس وقته ومواهبه في النشاط المضاد للعبودية، ذلك لابد يُحدث تطويرا به، ويكون ضربة قاصمة في نفس الوقت لميل الشماليين المضاد للون البشرة، لذلك حمسته، وغرست في نفسه الأمل والشجاعة، ليلتحق بهذا العمل الذي يناسب شخصا مثله، وتابعني في هذا الجهد أصدقاء ذوو قلوب طيبة، وخاصة الوكيل العام الأخير لجمعية ماساشوسيتس لمناهضة العبودية، مستر جون، أ. كولينز، الذي كان رأيه متفقا تماما معى، وإن لم يتشجع في البداية، بل بدا مشفقا على مستر دوجلاس من هذا العمل الكبير، إلا أنه وافق في النهاية، وأصبح مستر دوجلاس يحاضر ويخطب تحت رعاية جمعية مناهضة العبودية، وكان مجتهدا في أعماله، وناجحا في تغيير الاتجاه المضاد للملونين، واكتساب المريدين، وإثارة عقول الجماهير، مما فاق أكثر التوقعات حماسة له.

لقد كان يتصرف برقة وحلم مع رجولة صادقة، وكخطيب تميز بتدفق مشاعره، فطنته، قدرته على المقارنة والمحاكاة، قوة عقله، وتدفق لغته، وتجسم فيه اتحاد العقل والقلب اللازم لتنوير العقول، واكتساب قلوب الآخرين، وكانت قوته مساوية لحياته، وإنه لمستمر في طريق الفضيلة الصاعد، ومعرفة الله بازدياد، خدمة لقضية الإنسانية الجديدة، سواء في الوطن أو خارجه.

لقد كانت حقيقة جديرة بالتوقف أمامها حقا، أن يقف أمام الجمهور عبد هارب، ليكون من أهم أنصار العبيد كفاءة، وأعني بذلك شخص فريدريك دوجلاس، في الوقت الذي يمثل فيه الملونين الأحرار، تشارلس لينوكس رايموند، والاثنان حازت فصاحتهما أعلي مديح من الحشود على جانبي الأطلنطي، دع إذن المتقولين على الجنس الملون، يحتقرون أنفسهم على وضاعتهم، وتعصب أرواحهم، ومن الآن فصاعدا توقف عن الكلام عن النقص الطبيعي عند أولئك الذين لم ينقصهم شيء غير الوقت والفرصة لبلوغ أعلي نقطة من الإمتياز الإنساني.

ربما يكون سؤالا حقيقيا ماذا كان يوجد على هذه الأرض، من قاسى الحرمان وعانى رعب العبودية، دون أن يصبح أكثر انحطاطا في مستوي الإنسانية، مثل العبيد أبناء افريقيا، هؤلاء الذين لم يوجد عمل لمحو ثقافتهم إلا وتم إنجازه، وكذلك لإظلام عقولهم، وتحطيم طبيعتهم الأخلاقية، ومحو كل أثر لعلاقة بينهم وبين الجنس البشري، ورغم ذلك فأي روعة في أنهم تحملوا ذلك كله، إننا كي نتمثل ذلك وكي نعرف أثر العبودية على الإنسان الأبيض، وكيف أنه ليست لديه القوة في تحمل مثل هذه الظروف، وليس بمتفوقا على إخوانه السود، كي نعرف ذلك، نستمع إلى هذه القصة التي رواها دانييل أوكونيل المدافع المتميز عن الحرية العالمية والبطل شديد البأس لايرلندا المستعمرة والتي لا تقهر، لقد روي هذه القصة في إحدي خطبه في قاعة ((الصلح)) في دبلن في ٣١ مارس عام ١٨٤٥ قال:

ليس مهما تحت أي اصطلاح مزيف تتستر العبودية، فإنها لاتزال بشعة، وبها ميل طبيعي حتى للعصف بكل ملكة نبيلة عند الإنسان، إن بحارا أميركيا نُسي على شواطئ أفريقيا، حيث عاش عبدا لثلاثة أعوام هناك، ووُجد عند نهاية هذه الفترة وقد تحول إلى وحش وبهيمة، لقد فقد كل قوة للإدراك، ونسي لغته الوطنية، وكان ينطق فقط ببعض الرطانة التي لايفهمها أحد إذ هي خليط من الحروف العربية والإنجليزية، وكان هو نفسه غير قادر أن يدركها، إن هذه القصة مثل غير عادي على التدهور العقلي، إنها تثبت بجلاء أو على الأقل، أن العبد الأبيض يمكن أن ينحدر في مستوي الإنسانية مثل العبد الأسود.

لقد اختار مستر دوجلاس أن يكتب سيرته على أكمل وجه، وبأسلوبه هو، ووفقا لأحسن قدراته، بدلا من أن يستخدم شخصا آخر، لذلك فهي إنتاجه الخاص، وباعتبار طول وظلام حياته كعبد، وقلة فرصته بعد تحطيم قيوده في تحسين مستواه الذهني، فإن هذا العمل يعد في تقديري مفخرة لعقله وقلبه، من الذي يستطيع أن يطالع هذه السيرة دون عين دامعة، وصدر حزين، وروح معذبة، دون أن يمتلئ بالمقت للعبودية وكل أشرارها، ويمتلئ بالتصميم على البحث عن مخرج فوري لذلك النظام الشنيع، ويصاب بالرعب على مصير هذا البلد، في يديّ الله الحق، الذي هو دائما في جانب المضطهَدين، والذي لا يغفل عن إنقاذهم، إن الذي يقرأها دون ذلك لذو قلب صلد قد من حجر، يناسبه أن يكون تاجرًا للعبيد وأرواح البشر، إنها سيرة

تخلو من كل حقد أو مبالغة، ولا شيء فيها من نسج الخيال، بل هي بنت الواقع مباشرة، ولا تزيد في أي واقعة فيها بالنظر إلى العبودية ذاتها، إن خبرة فريدريك دوجلاس- كعبد- لم تكن شيئًا فريدًا، وقدره لم يكن أصعبها، ويمكن اعتبار حالته عينة واضحة على معاملة العبيد في ميريلاند، الولاية التي عرفت بأن فيها يجد العبيد طعاما كافيا، وقسوة أقل مما هو في جورجيا، وألاباما، ولويزيانا، الكثيرون عانوا أكثر منه مما لا يمكن المقارنة معه، بينما قليلون جدًا من عانوا أقل منه، إذن أي وضع تعس كان وضعه؟ أي عقوبات مرعبة جرت عليه؟ أي انتهاكات صارمة وقعت على روحه وهو بكل قواه النبيلة، وإلهاماته السامية؟ كيف عومل كدابة حتى من قبل أولئك الذين احترفوا الادعاء بأن لديهم روحا مثل الذي كانت للمسيح؟ كيف أجبر على ماهو مرعب؟ كيف كانت حاجته لمشاورة الأصدقاء ومساعدتهم في غمرة البلاء، كيف كان ثقيلا ليل الحزن الذي أغرق في الظلام آخر أشعة الأمل، وملأ المستقبل بالرعب؟ أي أشواق للحرية جاشت في صدره؟ وكيف كان بؤسه يزداد مضطردا مع نمو ذكائه وتأملاته؟ وهكذا موضحا كيف أن العبد السعيد هو إنسان خامد العقل، نرى كيف فكر، وتعقل، وأحس تحت سوط المراقب والسلاسل تقيد أطرافه، أي أخطار واجهها في هروبه وفي بحثه عن طريق للهروب من المستنقع المرعب؟ وكيف سطع في ذهنه خلاصه، وهو عبد وسط أُمَّةٍ من الأعداء الغلاظ.

إن هذه السيرة تحتوي على كثير من الوقائع المؤثرة، وكثير

من الصفحات البليغة والقوية، لكنني أعتقد أن أكثرها تحريكًا للنفس هو وصف دوجلاس لمشاعره، وهو يحدث نفسه عن مصيره، وفرصته أن يكون حرًا يومًا ما، بينما كان يقف على ضفاف خليج تشيزابيك، متطلعا إلى السفن الراحلة ذات الأشرعة البيضاء، وتمثله لها وكأنما حلت فيها الروح الحية للحرية، من الذي يستطيع أن يقرأ تلك الصفحة دون أن تثور مشاعره؟ لقد ضغط فيها كل فكر ومشاعر وعواطف الأدب السكندري، كل ما يمكن وما يحتاج المناقشة، في شكل عتاب، وتوسل، وتأنيب، ضد جريمة الجرائم تلك، أن يكون الإنسان ملكًا لأخيه الإنسان!

أوه، أي ملعون ذلك النظام الذي يدفن عقل الإنسان الجميل، ويشوه الخيال الإلهي، وينزل أولئك الذين كانوا بالتأكيد مكللين بالمجد والشرف، إلى مستوى البهائم ذوات الأربع، ويمجد المتاجرين باللحم الإنساني ويرفعهم فوق الآلهة؟! لماذا يطول بقاء ذلك النظام ساعة واحدة؟! أليس شرًا تمامًا هذا البقاء؟!، ماذا يؤكد وجوده غير غياب الله، وكل اعتبار للإنسان، بين سكان الولايات المتحدة؟ فلتسرع السماء بهزيمته الأبدية!

إن كثيرًا من الناس الذين يجهلون تماما طبيعة العبودية، سوف يشكون بقوة حين يقرأون أو يستمعون، لأية حكاية عن الفظاعات التي تقع على ضحاياها كل يوم، إنهم لاينكرون أن العبيد يعتبرون متاعا، ولكن هذه الحقيقة المرعبة لا تثير في عقولهم أي فكرة عن الظلم أو الاضطهاد

أو البربرية الوحشية، أخبرهم عن الاضطهادات، والتجديع، ووصم العبيد بالأختام، ومشاهد النجاسة والدم، ومحو كل ضوء أو معرفة، ولسوف يغضبون بشدة من هذه المبالغات الكبرى، ومثل هذه الأخطاء بالجملة، وهذا الهجاء الشنيع لمزارعي الجنوب! كما لو كانت هذه الانتهاكات الذميمة ليست نتائج طبيعية لنظام العبودية! وكما لو كان أقل قسوة أن تُنزل الكائن البشري إلى مستوى الأشياء، مما لو جلدته بشدة، أو جوعته وعرته! أو كما لو كان الجَلد والسلاسل، وخرم الأصابع، والهراوات، والكلاب الدموية، والمراقبون، والملاحظون، والعسس، لا غنى عنها جميعا لجعل العبد شيئا منحطا، ولحماية مضطهدي العبيد الغلاظ! أو كما لو كان إفناء الأسر، واتخاذ السريّات، والزنا، وزنا المحارم، لن يكون موجودًا ومتوفرًا، حين تنتفي كل الحقوق الإنسانية، وأي حاجز يحمي الضحية من غضب المفسد، فحين تتسلط القوة المطلقة على الحياة والحرية، لن تكون السلطة مدمرة!

إن الشكوك من هذا النوع متوفرة في المجتمع، وهي نتيجة للحاجة إلى التأمل والتفكير، لكنها بشكل عام تشير إلى كراهية النور، والرغبة في تغطية العبودية من التهم الدالة على بشاعتها، وإحتقار الجنس الملون سواء كان عبدًا أو حرًا، هؤلاء سيحاولون إنكار الحكايات المفزعة عن بشاعة العبودية، والمسجلة في هذه السيرة الصادقة، لكن عملهم

سيذهب عبثا، لقد ذكر مستر دوجلاس- بوضوح- مكان مولده، وأسماء الذين اشتروا روحه وجسده، وأسماء الذين ارتكبوا الجرائم التي عاناها، لذلك فإن من السهل تفنيد ما يقول لو كان كاذبًا.

في حديث مستر دوجلاس، ربط بين مثالين للقسوة القاتلة، في واحد منهما أطلق مزارع النار- بعناد- على عبد يمتلكه صاحب المزرعة المجاورة، وكان خطأ العبد أنه توغل دون قصد في حدود الأول خلال صيده للمحار، وفي المثال الثاني فجر مراقب رأس عبد بالرصاص، وكان العبد قد قفز إلى جدول ماء قريب، هربا من المراقب الذي كان يجلده.

لقد قرر مستر دوجلاس أنه في الحالتين لم يتم اتخاذ أي إجراء قانوني للقبض على القاتل أو محاكمته، ولقد جاء في صحيفة البالتيمور أمريكان في ١٧ مارس عام ١٨٤٥ ما يشبه هذين المثالين في الفظاعة تحت العنوان إطلاق الرصاص على عبد والتفاصيل تحت العنوان تقول:

«لقد علمنا- بناء على خطاب من مقاطعة تشارلس بولاية ميرلاند، وصل إلى أحد رجال هذه المدينة المحترمين- أن شابا يدعى ماثيو، وهو ابن عم الجنرال ماثيو، ويعتقد أن أباه يعمل في واشنطن، قتل واحدًا من العبيد في مزرعة أبيه بإطلاق الرصاص عليه، وأوضح الخطاب أن ماثيو الشاب كان قد غادر المزرعة بعد أن أعطى أمرا لأحد خدمه، لكن الخادم لم يطعه فاتجه إلى البيت وأخذ بندقيته، وعاد وأطلق الرصاص

على الخادم، وبسرعة- يستمر الخطاب- فر ماثيو إلى أبيه حيث لا يزال آمنا».

لايجب أن ننسى أبدا أنه لا مالك عبد، ولا مراقب، يمكن أن يُدان على أي جريمة يرتكبها بحق العبد، أي درجة من الشيطانية هذه التي تجعل أيضا شهادة الشهود الملونين- أحرارًا كانوا أم عبيدًا- غير كافية وفقا لنظام العبودية، لإدانة رجل أبيض؟! العبيد جزء من البهائم، ولذلك لا توجد حماية قانونية على أي شكل لهم، وأي جرائم ترتكب في حقهم لا تقع تحت طائلة القانون، هل من السهل على العقل البشري أن يتصور حالة أكبر فزعا للمجتمع من هذه؟!

إن أثر احتراف الدين على سلوك الأسياد في الجنوب موصوف بحيوية في هذه السيرة، ويبرز بجلاء أنه يمكن أن يكون غير نافع، وهو في جوهره بالنسبة لهذه الحالة أعلى درجات الإفساد، إن شهادة مستر دوجلاس في هذه النقطة يؤيدها عديد من المشاهدين الذين لايُشَّك في صدقهم، احتراف ملاك العبيد للمسيحية هو دجل واضح، وفُجر من أعلى درجة، فهم سارقو بشر، وليس من الأهمية لهم ماذا تضع في الجانب الآخر من الميزان!

أيها القارئ! هل أنت مع سارقي البشر في العاطفة والغرض، أم في جانب ضحاياهم المداسين بالأقدام؟ إذا كنت مع الأولين، إذن فهل أنت عدو الله والإنسان؟ وإذا كنت مع الآخرين فما الذي تقدر عليه وتجتهد فيه لتفعله لهم؟ كن صادقا،

كـن يقظـا، كـن مثابـرًا في جهـودك لتحطيـم كل نـير وتحريـر كل مضطهـد، ومهـما كانـت العاقبـة، ومهـما كلفتـك، فزيـن رايتـك التـي سـتنشرها في الفضـاء بالشـعار الدينـي والسـياسي لا مسـاومة مـع العبوديـة، لا اتحـاد مـع مـلاك العبيـد.

ويليام اللويد جاريسون

بوسطن في مايو ١٨٤٥

مكتبة
t.me/soramnqraa

- 1 -

ولدت في توكاهوي القريبة من هيلسبورو، والتي تقع على بعد اثني عشر ميلا من إيستون، في مقاطعة تالبوت، بولاية ميريلاند، لم يكن لديّ أي معرفة دقيقة عن عمري، ولم أر أبدًا أي سجل حقيقي له، فالقسم الأكبر من العبيد يعرفون عن أعمارهم كما تعرف الخيول عن أعمارها، هذه رغبة معظم الأسياد الذين- كما رأيت- يريدون الاحتفاظ بعبيدهم جهالا.

لا أتذكر أنني قابلت عبدًا يستطيع أن يخبرني بيوم مولده، بل نادرًا ما يقتربون منه فيقولون موسم الزرع أو موسم الحصاد، أو موسم الكرز، أو الربيع، أو موسم المطر، وكانت رغبتي في معرفة تاريخ مولدي مصدر تعاسة لي حتى في طفولتي، فالأطفال البيض يعرفون تاريخ ميلادهم، ولم أستطع أن أفسر لماذا انتزعت مني هذه الميزة، لم يكن مسموحا لي بأي سؤال لسيدي عن هذا الموضوع، فهو يعتبر مثل هذه الأسئلة جانبا من فساد العبد ووقاحته، ودليلا على الروح الشريرة.

إن أقرب تقدير أستطيعه، يجعلني الآن بين السابعة والعشرين والثامنة والعشرين من عمري، ولقد توصلت لذلك

من سماعي سيدي وهو يقول ذات مرة عام ١٨٣٥، أنني في حوالي السابعة عشرة.

كانت أمي تسمى هاريت بايلي، وهي ابنة لإسحق وبيتس بايلي اللذين كانا أسودين، وكانت أمي أكثر سوادًا من جدي وجدتي.

كان أبي رجلا أبيض، وهذا يؤكده كل ما سمعت عن مولدي، كانت هناك أيضا فكرة منتشرة تقول إن سيدي هو أبي، لكنني لم أعرف شيئا يثبت صحة هذا وكانت تنقصني وسائل المعرفة، في طفولتي فُصلت عن أمي، قبل أن أعرفها كأم لي، إنها عادة شائعة في ولاية ميريلاند التي هربت منها، أن يُفصل الأطفال عن أمهاتهم في عمر مبكر جدا، فغالبا قبل أن أن يصل الطفل إلى عامه الأول، تنتزع منه أمه، وتنتقل مباعة إلى مزرعة أخرى بعيدة مسافة كبيرة، بينما يوضع الطفل تحت رعاية امرأة عجوز غير قادرة على أعمال الحقل.

لماذا يتم هذا الفصل بين الطفل وأمه؟ لا أعرف سوى أنه يهدف إلى قمع نمو عواطف الطفل تجاه أمه، ومسح وتدمير العاطفة الطبيعية لأم نحو الطفل كنتيجة حتمية لذلك.

لم أرَ أمي قط، ولم أعرفها أكثر من أربع أوخمس مرات في حياتي، في كل مرة كان الوقت قصيرًا، وكان ليلا، لقد استأجرها مستر ستيوارت الذي يعيش على بعد اثني عشر ميلا من موطني، وكانت تجعل رحلاتها لرؤيتي ليلا، فتسافر كل هذه المسافة على قدميها بعد أداء عملها اليومي، كانت تعمل في

الحقل بيديها، وكان الجلد بالسوط هو العقاب إذا أشرقت الشمس ولم تكن في الحقل، مثل هذا كان يستوجب تصريحًا من سيد العبد أو سيدته، وهذا شيء يندر الحصول عليه، أما الذي يعطيه فيتباهى بأنه سيد طيب.

لا أتذكر أبدًا أنني رأيت أمي في ضوء النهار، كانت تبقي معي في الليل، تنام إلى جواري، تنيمني، ولكن قبل أن أستيقظ بكثير كانت ترحل، لقد تمت لقاءات قليلة بيننا، ثم سرعان ما أنهي الموت هذا القليل الذي حصلنا عليه في حياتها، وأنهى معه معاناتها وآلامها.

لقد ماتت وأنا في حوالي السابعة من عمري، في إحدي مزارع سيدي بالقرب من طاحونة لِي، ولم يسمح لي بالتواجد أثناء مرضها، ولا في موتها، ولا في دفنها، هكذا رحلتْ قبل أن أعرف أي شيء عنها بوقت طويل، لم أستمتع أبدًا- ولو إلى حد معقول- بحضورها الهادئ اللطيف، أو رقتها، وعنايتها، وتلقيت نبأ موتها بنفس المشاعر التي ربما أشعر بها حين يموت غريب.

بحدوث ذلك- هكذا فجأة- تركتني دون أدنى معرفة بحقيقة أبي، إن الهمس بأن سيدي هو أبي، ربما كان صادقًا أو كاذبًا، صحيحًا أو مزيفا، وهو أمر لا يقدم أو يؤخر، بينما تظل الحقيقة- بكل بغضها الساطع- أن مالكي العبيد قد قضوا وأقروا بالقانون القائل أن أبناء الأَمَة سيتبعون في كل الأحوال حال أمهاتهم، لقد قضوا بهذا لأنه يناسب رغباتهم، ويجعل

إشباع شهواتهم الفاجرة مفيدًا بقدر ما هو ممتع، لأنه بهذا التنظيم المخادع، فإن مالك العبد، يمثل بالنسبة للعبد- في حالات ليست قليلة- العلاقة المزدوجة للسيد والأب، إنني أعرف مثل هذه الحالات، وجدير بالملاحظة، أن مثل أولئك العبيد، يعانون- بشكل مستمر- صعوبات أكبر، ولديهم الكثير ليصارعوه أكثر مما لدى الآخرين، إنهم في المقام الأول محل إيذاء دائم من سيدتهم، فهي دائمة التفتيش عن أخطائهم، وهم لا يستطيعون عمل أي شيء يسرها، وهي لا تُسر أبدًا إلا إذا رأتهم مقيدين، خاصة وإنها تشك في زوجها بسبب ما تراه من الأطفال الخلاسين الذين يميزهم عن عبيده السود، كثيرا ما يجبر السيد مرارًا على بيع هذه المجموعة من عبيده مراعاة لمشاعر زوجته البيضاء، ويكون الأمر قاسيا كصدمة الموت للرجل أن يبيع أطفاله لآكلي لحوم البشر، ولكن غالبا ما تملى عليه الإنسانية ذلك، وإلا فعليه- إن لم يفعل- ألا يجلدهم بنفسه، بل يقف بعيدا ويرى ابنا أبيض يقيد أخاه، الذي أكثر سمرة منه، ويُجري السوط الدموي على ظهره العاري، وإذا ما نبس بكلمة واحدة تدل على عدم رضاه فإنها، تعزي إلى تحيزه الأبوي، ويزيد الأمور سوءًا بالنسبة لنفسه، وللعبد الذي أراد حمايته أو الدفاع عنه.

كل عام يمر كان يأتي معه بأعداد من هذه الطبقة من العبيد، ولم يكن هناك شك فيما سينجم بعد معرفة هذه الحقيقة، ذلك أن أحد رجال الدولة الكبار في الجنوب، تنبأ

بسقوط دولة العبودية من جراء القوانين الحتمية للنمو البشري، وسواء تحققت هذه النبوءة أم لا، فمن الواضح أن هناك طبقة ذات شكل مختلف من الناس تزدهر في الجنوب، وهي الآن ترسف في العبودية، مثل أولئك الذين أُحضروا أصلا إلى هذه البلاد من إفريقيا، وزيادة هذه الطبقة لن تكون طيبة، بل ستمحو قوة المثل القائل بأن الله قد لعن حام ومن ثم فإن العبودية الأميركية صحيحة، ذلك أنه إذا كان أخلاف حام وحدهم المستعبَدين وفقا للكتاب المقدس، فإنه من المؤكد أن العبودية في الجنوب يجب أن تصبح حالا غير مقدسة، لأن آلافا يُدفعون سنويا إلى العالم وهم، مثلي، مدينون بوجودهم إلى أباء بيض، أولئك الآباء الذين غالبا ما يكونون أسيادهم.كان لي سيدان، اسم سيدي الأول أنطونيو كان يلقب بالكابتن أنطونيو هو لقب أخمن أنه اكتسبه لقيادته مركبا في خليج تشيزابيك، وهو لم يكن معدودا كمالك عبيد غني، كان يمتلك مزرعتين أو ثلاثا، ونحو ثلاثين عبدًا.

كانت المزارع والعبيد تحت إشراف مراقب يدعي بلامر، وكان مستر بلامر سكيرًا بائسًا، فاحشًا مبتذلًا، ووحشًا متوحشًا! يظهر بشكل دائم مسلحا بسوط من جلد البقر وهراوة ثقيلة، لقد عرفته يجلد رؤوس النساء بقسوة، مما يدفع السيد للغضب منه وتهديده بالجلد إذا لم يثب إلى رشده، وهذا لا يعني على أية حال أن السيد كان مالك عبيد إنسانيًا، بل كان سيدي رجلا قاسيًا، وازدادت قسوته بفضل حياته الطويلة كمالك

للعبيد،كثيراً ما يبدو مستمتعا للغاية بجلدهم.

وحتى الآن غالبا ما أستيقظ عند الفجر بسبب اضطراب قلبي من جراء ما فعله بخالتي التي اعتاد أن يربطها إلى عارضة في السقف ويجلدها على ظهرها حتى يغطيها الدم، لم تكن هناك كلمات، ولا دموع، ولا صلوات من ضحيته الدامية، تحرك قلبه الحديدي، تصرخ خالتي ألما فيجلدها بقسوة، وحيث يجري الدم متفصدا أسرع يجلد طويلا، وحين يهده التعب يتوقف وينفض الدم اللزج عن السوط العريض.

أتذكر أول مرة شاهدت فيها هذا العرض المفزع، كنت طفلا صغيرا، لكنني مازلت أذكره، ولن أنسى أبدا ذلك طالما بقيت لدي القدرة على أن أتذكر أي شيء.

لقد كان ذلك أول ما رأيت من سلسلة العنف الطويلة، التي كنت مجبراً على أن أشاهدها وأشارك فيها، لقد صدمني المشهد بقوة، كان الباب إلى الدم المنسكب، إلى جحيم العبودية، الذي من خلاله كنت على وشك العبور، كان أفظع مشهد يمكن أن يرى وأتمني لو أستطيع أن أنقل على الورق المشاعر التي بها استقبلت ما جرى، لقد حدث هذا بسرعة بعد وصولي للعيش مع سيدي القديم وتحت الظروف التالية.

خرجت الخالة هيستر ذات ليلة- لسبب لا أعرفه- وحدث أن كانت غائبة حين طلب سيدي أن يراها، لقد سبق وأمرها ألا تخرج ليلا، وحذرها من إمساكه بها في صحبة شاب كان يهتم بها، وكان مملوكا للكولونيل اللويد، كان اسم الشاب نيد

روبرتسو يطلقون عليه نيد اللويد، لماذا كان سيدي شديد العناية بها هكذا؟ هذا شيء يترك للتخمين، لقد كانت امرأة ذات مظهر نبيل، وتناسب بديع، قل مثلها أو أفضل منها في مظهرها بين النساء الملونات والبيض في منطقتها، لم تعص الخالة هيستر فقط أوامر سيدي وتخرج أثناء الليل، بل وجُدت أيضا بصحبة نيد اللويد»، الذي قال أثناء جلد خالتي أنه المذنب الرئيسي، ولا بد أنه كان نقي الأخلاق ليدافع عن براءة خالتي، إن الذين عرفوه لم يشكوا قط في فضائله.

قبل أن يبدأ سيدي بجلد الخالة هيستر أخذها إلى المطبخ ومزق ثيابها من عنقها حتى وسطها تاركا عنقها وكتفيها وظهرها عارية تمامًا، ثم طلب منها أن تجعل يديها كالصليب، بعد ذلك ربط يديها بحبل قوي وأخذها إلى مقعد بلا ظهر تحت خطاف كبير متدلٍ من عارضة في السقف وضع أصلا لهذا الغرض، وجعلها تقف فوق الكرسي ثم قيد يديها في الخطاف، أصبحت الآن واقفة معرضة لهدفه الشيطاني ولقد رُفعت ذراعاها إلى أقصي طاقة لهما حتى أنها وقفت على أطراف أصابع قدميها، حينئذ قال لها:

«الآن سوف أعلمك كيف تعصين أوامري!»،

وبعد أن طوي كُميِّهِ، بدأ في فرد السوط العريض- المصنوع من جلد البقر- وحالا تقاطر الدم الساخن الأحمر إلى الأرض وسط صرخات تتردد من القلب منها، ولعنات مروعة منه.

كنت مأخوذًا ومصدومًا بالرعب من المشهد حتى أنني خبأت

نفسي في غرفة ولم أستطع الخروج لفترة طويلة بعد انتهاء هذا الأداء الدموي، فلقد توقعت أن يكون دوري بعدها، وكان ذلك كله جديدا على، ولم يحدث أن رأيت مثله من قبل قط، فلقد عشت دائما مع جدتي في أطراف المزرعة، حيث كانت تعتني بأطفال النساء الأصغر منها، لذلك كنت بعيدًا عن المشاهد الدموية التي تجري دائما في المزرعة.

*****

- 2 -

كانت أسرة سيدي تتكون من ولدين هما أندرو، وريتشارد، وبنت هي لوكريشيا المتزوجة من الكابتن توماس أولد، وكانوا يعيشون جميعا في منزل واحد في ضيعة الكولونيل إدوارد اللويد.

كان سيدي هو كاتب الكولونيل اللويد وناظر أعماله، أو ما يمكن تسميته بمراقب المراقبين، ولقد أمضيت عامين من طفولتي في هذه الضيعة بين عائلة سيدي القديم، وهنا شاهدت الأداء الدموي الذي أشرت إليه في الفصل السابق، ولأنني استقبلت انطباعاتي الأولى عن العبودية في هذه الضيعة، فسأعطي بعض الوصف لها، وللعبودية كما وجدت هناك.

تقع الضيعة على بعد نحو اثني عشر ميلا شمال إيستون في مقاطعة تالبوت وعلي حدود نهر المايلز، كانت المحاصيل الرئيسية فيها هي الدخان والذرة والقمح، وتزرع بكميات هائلة، وبهذه المنتجات، ومنتجات المزارع الأخرى، كان الكولونيل قادرًا على الاحتفاظ بسفينة نهرية كبيرة في حالة عمل من أجل نقل المحاصيل إلى السوق في بالتيمور.

كانت السفينة تحمل اسم سالي اللويد تشريفًا لها باسم

إحدى بنات الكولونيل، وكان كابتن أولد، زوج ابنة سيدي، هو قائد السفينة التي يديرها بيتر، وإسحق وريتش، وجاك.

هؤلاء الأربعة من عبيد الكولونيل كانوا في مكانة أرفع من بقية العبيد، وهم مميزون في الضيعة، لأنه لم يكن عملًا صغيرًا، في عيون العبيد، أن يُسمح لهم برؤية بالتيمور».

لقد أحتفظ الكولونيل اللويد بعدد يتراوح ما بين ثلاثمائة وأربعمائة من العبيد في ضيعته، وامتلك عددًا أكبر في المزارع المجاورة المملوكة له أيضا، وكانت المزارع القريبة إلى ضيعته تحمل أسماء واي تاونو «نيو ديزاين»، أشرف على واي تاون رجل يدعى نواه ويليسب بينما كانت نيو ديزاين تحت إشراف مستر تاونسيند».

كان المشرفون على هاتين المزرعتين، وكل المزارع الباقية، الذين يزيد عددهم على عشرين، يتلقون الإرشادات والتوجيهات من مديري الضيعة، إذ أن الضيعة كانت بمثابة مركز العمل الكبير، مركز حكومي للمزارع العشرين الأخرى.

كل النزاعات بين المشرفين أو المراقبين كانت تُحل هنا، وإذا ما أدين عبد على أي مخالفة كبرى للقانون، مثل التمرد على القيادة، أو الهرب، يؤتى به بسرعة إلى هنا فيجلد بلا شفقة، ثم يوضع على ظهر السفينة إلى بالتيمور حيث يباع إلى أوستن وولفولك»، أو أي تاجر عبيد آخر، كتحذير لبقية العبيد.

هنا أيضا يتسلم عبيد المزارع الأخرى حصصهم الشهرية من الطعام وكسواتهم السنوية، وكانت حصة العبد أو الأمة

ثمانية أرطال من لحم الخنزير، أو ما يعادلها من السمك كل شهر، وبُشل من الذرة (البُشل مكيال للحبوب يساوي ثلاثة أرطال ونصف وزنًا)، أما الحصة السنوية من الثياب فكانت تتكون من قميصين من الكتان الخشن، وسروال من الكتان في لون القميص، وسترة، وسروال للشتاء مصنوع أيضا من قماش العبيد الخشن، وجورب، وحذاء، وكلها لا تكلف أكثر من سبعة دولارات، وكانت حصة أطفال العبيد تقدم إلى أمهاتهم، أو للعجوز التي تقوم على تربيتهم، ولم يكن الأطفال الصغار- غير القادرين على العمل في الحقول- ينالون أي شيء من الأحذية أو الجوارب أو السترات أو السراويل، فقط يُعطى لكل طفل قميصان من الكتان الخشن كل عام، وحين تتمزق هذه، يمضون بقية العام عراة حتى يحين موعد تسلم حصة العام التالي، وهكذا كان الأطفال من السابعة حتى العاشرة من العمر، ومن كلا الجنسين، عراة تقريبا في كل فصول السنة.

ولم تكن هناك أسرّة لينام فوقها العبيد، فقط بطانية من الكتان الخشن تقوم مقام السرير، وهذه لا يملكها غير الرجال والنساء، ولكن لم يكن هذا- على أي حال- بؤسا عظيما، فمتاعب عدم وجود أسرّة أقل من المتاعب الناشئة عن عدم وجود وقت كاف للنوم، ذلك أنه حين ينتهي العبيد من عملهم في الحقل، يكون على معظمهم الاستحمام وترتيب حاجاتهم، والطهو، ولم يكن إنجاز أي من ذلك شيئا سهلا، فكانت ساعات كثيرة من ساعات النوم العادية تضيع في الاستعداد للعمل في الحقل

في اليوم التالي، وحين ينتهي ذلك كله، فإن الذكور والإناث من الشباب والكبار، متزوجين وعزابا، يسقطون منطرحين إلى جانب بعضهم بعض على سرير واحد - هو الأرض الباردة الرطبة- وكل يغطي نفسه ببطانيته البائسة، وينامون حتى يسمعوا بوق المراقب يستدعيهم للعمل في الحقل، عند سماع البوق لا يجب أن يكون هنالك أي تأخير، والواجب أن يكون كل واحد في موقعه، والويل لأولئك الذين لا يسمعون هذا النداء الصباحي، هؤلاء إن لم ينهضوا على حاسة السمع، سينهضون على حاسة اللمس، دون رحمة أو تقدير للعمر أو الجنس، للعجوز أو المرأة.

لقد اعتاد مستر سيفر، المراقب، أن يقف عند الباب مسلحًا بهراوة كبيرة من فروع شجر الجوز الأمريكي، وبسوط من جلد البقر الثقيل، مستعدا لجلد أي شخص أتعسه الحظ فلم يسمع البوق، أو تأخر لأي سبب آخر، في الخروج إلى الحقل.

كان اسم مستر سيفر صادقا مع أفعاله (سيفر بالإنجليزية تعني حادًا)، فقد كان رجلا قاسيًا، رأيته يجلد امرأة جاعلا الدم ينزف منها لنصف ساعة ويحدث هذا وسط صرخات أطفالها، النازفين من أجل خلاص أمهم، كان يبدو كأنه يتلذذ بتحقيق همجيته الشيطانية، وبالإضافة إلى قسوته فقد كان فاحشًا مبتذلا يكفي الرجل العادي أن يسمع صوته ليتجمد فيه الدم ويقف شعر رأسه، نادرا ما تلفظ مستر سيفر بجملة دون أن تبدأ أو تنتهي بلعنات مروعة، وكان الحقل هو

معرض قسوته، وكان حضوره يجعله حقلا للدم والكفر، منذ الشروق حتى الغروب يظل يلعن، ويمتهن، ويجرح، ويجلد العبيد بأكثر الطرق إثارة للرعب، لكن كان عمله قصيراً، فقد مات بسرعة بعد انتقالي إلى الكولونيل اللويد، ومات كما عاش، صارخا بزفرات الموت، واللعنات الحادة، والشتائم المرعبة، لقد نظر العبيد إلى موته كأثر من آثار العناية الإلهية.

شغل مستر هوبكينز مكان مستر سيفر، كان رجلًا مختلفًا تمامًا، أقل قسوة، أقل ابتذالًا، أقل ضجة من سلفه، تميز عمله بعدم وجود مظاهر غير عادية للقسوة، كان يجلد، ولكن يبدو غير مستمتع بالجلد، وأطلق عليه العبيد اسم المراقب الطيب.

كان لضيعة الكولونيل اللويد مظهر قرية ريفية، فكل الأشغال الميكانيكية لبقية المزارع تتم هنا، صناعة الأحذية، الأثاث، الحدادة، عربات النقل، النحاس، النسيج، طحن الغلال، كلها يقوم بها العبيد في الضيعة، وكان المكان يكتسي ثوب العمل حيث لا تشبهه في ذلك أي مزرعة مجاورة، عدد المنازل أيضا كان مخططا كي يعطيها ميزة على المزارع المجاورة، لقد أسماها العبيد ضيعة المنزل الكبير»، وكان اختيار عبيد المزارع الأخرى لمأمورية في ضيعة المنزل الكبيريعتبر ميزة خاصة، لقد ارتبطت في أذهانهم بالعظمة، ولايستطيع أي نائب أن يفاخر بانتخابه لمقعد الكونجرس الأمريكي كما كان يفاخر عبد من المزارع الأخرى إذا اختير لقضاء مأمورية في ضيعة المنزل الكبير،

كانوا يعتبرون ذلك دليلا على الثقة الكبيرة التي يوليها لهم المراقبون، وكان في ذلك، طعم الرغبة الدائمة في النجاة من سوط المراقب حين يخرجون إلى الحقول!، ولهذا اعتبروه ميزة فائقة يستحق الشخص أن يعيش من أجلها، لقد كان يسمي بالنبيه، وبأكثر الرجال صدقًا، من يحظى بهذا الشرف، وكان المتنافسون على هذا يبحثون بهمة عما يسر مراقبيهم، كما يبحث الباحثون عن دور في الأحزاب السياسية عن عمل يسر ويخدع الناس، نفس سمات الشخصية كانت موجودة في عبيد الكولونيل اللويد كما هي موجودة في عبيد الأحزاب السياسية.

لقد كان العبيد، الذين يتم اختيارهم للذهاب إلى ضيعة المنزل الكبير من أجل الحصول على حصتهم، وحصص زملائهم الشهرية من الطعام، يبتهجون بشكل غريب، وفي طريقهم كانت الأشجار الكثيفة- الممتدة أميالا حولهم- تردد أغانيهم المتوحشة، التي تكشف عن مزيج من المرح العظيم والحزن العميق، كانوا يعزفون ويغنون طوال الطريق، دون مراعاة للوقت ولا للنغم، كانت الفكرة التي تخطر على البال، تخرج إن لم يكن في كلمة ففي صوت وبالتتابع فيما بينهم، أحيانا يغنون أكثر العواطف شجنا في أكثر الأنغام فرحًا، أو أكثر العواطف فرحًا في أكثر الأنغام حزنًا، وفي كل أغانيهم يتوقون لعمل شيء في ضيعة المنزل الكبير، فهم حين يفارقون مزارعهم، ينطلقون بابتهاج شديد يغنون الكلمات الآتية:

«إنني ذاهب في طريقي إلى ضيعة المنزل الكبير.. أوه، ييه، أوه، ييه، أو»!

يغنون مثل كورس، الكلمات التي قد تبدو للكثيرين رطانة بلا معنى، كانت بالنسبة إليهم مليئة بالمعاني، لقد فكرت أحيانا في أن مجرد الاستماع إلى تلك الأغنيات، يفعل الكثير في إقناع العقول بالخاصية المرعبة للعبودية، أكثر من قراءة كل مجلدات الفلسفة حول الموضوع.

لم أفهم- حين كنت عبدًا- المعنى العميق لتلك الأغنيات الخشنة بادية التفكك، لقد كنت أنا نفسي داخل الدائرة، حتى أني لم أر ولم أسمع كما قد يرى ويسمع أولئك الذين خارجها، لقد كانوا يحكون حكاية عن الحسرة التي كانت بعيدة تماما عن فهمي البسيط، كان النغم عاليا طويلا وعميقا، أنفاسهم تبدو كصلوات، ويشكون من أرواحهم المتقلبة في العذاب الأعظم، كل لحن كان إعلانا ضد العبودية وصلاة إلى الرب كي يخلصهم من القيود، كان سماع تلك الكلمات البرية يسبب دائما الاكتئاب لنفسي، ويملأني بالحزن الذي لا يحيط به وصف، وكثيرًا ما وجدت نفسي باكيًا حين أسمعهم، إن مجرد العودة إلى تلك الأغنيات، يثيرني حتى الآن، وبينما أكتب هذه السطور فإن نهرًا من المشاعر يجد طريقه إلى وجهي، في هذه الأغنيات تلمست أول تصوراتي البريئة عن الهوية غير الإنسانية للرق، وحتى الآن لم أستطع التخلص أبدا من ذلك التصور، ولم تزل تلك الأغنيات تتبعني لتعمق الكراهية للرق، وتسرع بتعاطفي مع إخواتي في القيود، إذا شاء أحد أن يرى آثار الرق المدمرة للروح، دعه يذهب إلى ضيعة الكولونيل

اللويد، في يوم استلام الحصة الشهرية من الطعام، أو السنوية من الملابس، وَضَعْهُ في قلب غابة الصنوبر، واتركه في صمت يحلل الأصوات التي ستتخلل ثنايا نفسه، فإذا لم يتأثر بهذه الطريقة سيكون ذلك لأنه لا يوجد في قلبه الجامد روح».

غالبا ما كنت أندهش- بشدة- منذ أتيت إلى الشمال، من وجود أشخاص يستطيعون الكلام عن الغناء عند العبيد على أنه علامة على رضاهم وسعادتهم، من المستحيل تصور خطأ أكبر من هذا، يغني العبيد أكثر حين يكونون أكثر تعاسة، أغاني العبد تمثل أحزان قلبه، وهو يخفف عن نفسه بدموعه، هذه هي خبرتي على الأقل، فكثيرا ما غنيت لأغرق أحزاني، ونادرًا ماغنيت لأعبر عن سعادتي، إن الصياح بسبب المرح، والغناء بسبب المرح كانا أمرًا غير شائع بالنسبة لي طالما كنت في أسر العبودية، ربما كان غناء إنسان- طوح به بعيدًا في جزيرة موحشة- دليلًا على الرضا والسعادة، لكن الأمر يختلف بالنسبة لغناء العبيد، فأغنياتهم تندفع جميعها بانفعال واحد.

*****

- 3 -

لـدى الكولونيـل اللويـد حديقـة واسـعة مثمـرة، تتيـح العمـل الدائـم لأربعـة مـن المسـتخدمين إلى جانـب البسـتاني الرئيـسي مسـتر أمدورمونـد»، ولقـد كانـت هـذه الحديقـة أكـثر الأشـياء جاذبيـة في الضيعـة، فخـلال أشـهر الصيـف كان النـاس يأتـون مـن الأماكـن القريبـة والبعيـدة، مـن بالتيمـور، وإيسـتون، وأونابوليـس، ليشـاهدوها.

كانـت عامـرة بالفواكـة مـن كل نـوع، مـن تفـاح الشـمال الجـاف إلى برتقـال الجنـوب الطـري، لكنهـا كانـت مصـدرًا للمشـاكل في الضيعـة، إذ أن فاكهتهـا الممتـازة كانـت مـادة إغـراء كبـير لحشـود الأولاد الجوعـى، كـما أنـه قـل مـن كان يملـك فضيلـة مقاومـة هـذا الإغـراء مـن بـين العبيـد القدامـى المملوكـين للكولونيـل، لذلـك نـادرًا مـا مـر يـوم مـن أيـام الصيـف دون جلـد بعـض العبيـد عقابًـا عـلى سرقـة الفواكـه.

لقـد اتخـذ الكولونيـل كل أنـواع الإجـراءات ليحتفـظ بعبيـده بعيـدًا عـن الحديقـة، وكانـت آخـر وأنجـح طريقـة هـي طـلاء سـياجها بالقطـران، بعـد ذلـك كان أي أثـر للقطـران عـلى ملابـس العبـد دليـلا كافيًـا عـلى أنـه إمـا كان داخلهـا أو حـاول دخولهـا،

وعلى هذا يتم جلده بقسوة من قبل البستاني، أثبتت هذه الطريقة فاعليتها، وصار العبيد يخشون القطران خشيتهم للجلد، لقد تحققوا من استحالة لمس القطران دون عقاب.

كان الكولونيل أيضا يحتفظ بقافلة ركوب ذات خيول رائعة، تشبه قوافل السفر في مدينتنا الكبيرة! وكانت خيول الكولونيل من أجمل الأشكال وأزكاها دوما، وشملت القافلة ثلاث عربات فاخرة، وثلاث أو أربع عربات صغيرة من ذات العجلتين، وكانت مقاعدها المتجاورة والمتقابلة من أحدث الموضات، أشرف على هذه القافلة عبدان، بارني الكبير، وبارني الصغير، وهما أب وابن، وكانت العناية بالقافلة هي عملهما الوحيد، لم يكن هذا- بأية حال- عملا سهلا، لأن الكولونيل اللويد لم يكن مهتما بشيء اهتمامه بخيوله، فأقل إهمال في هذا الشأن يعد أمرًا لا يغتفر، ويكون العقاب شديدًا، ولاعذر للنجاة.

إن أقل تفكير أو ارتياب في أي تقصير نحو خيول الكولونيل- الذي كان يفترض ذلك دائمًا في عقله- كان كفيلا بجعل مركز بارني الكبير وبارني الصغير صعبًا للغاية، ودائما لا يعرف أي منهما متى سيفلتان من العقاب، بل إنهما، بشكل دائم يجلدان حين لا يستحقان ذلك، وينجوان من الجلد حين يستحقانه، فكل شيء كان يعتمد على مظهر الخيول، وحالة الكولونيل اللويد المزاجية حين يطلب الخيول لاستخدامها، فإذا لم يتحرك الفرس بسرعة كافية، أو إن لم يحتفظ برأسه

عاليا بدرجة كافية، يرجع هذا لأخطاء المعتنين به، لقد كان الكولونيل يقف أمام الإسطبل متألما ويرسل الشكاوى العديدة ضد القائمين على خيوله في الوقت الذي يتم فيه إخراج أي فرس يطلبه، فهذا الفرس لم يحظ بعناية كافية، أو لم يُنظف جيدًا، ولم يُمشّط جيدًا، وربما لم يطعم، أو كان طعامه رطبا جدًا، أو جافًا جدًا، أو أنه قُدم إليه قبل الموعد أو بعده، وربما كان ساخنا جدا أو باردًا للغاية، أو أن الفرس أكل كثيرًا من التبن ولم ينل ما يكفي من الحبوب، أو أكل كثيرا من الحبوب ولم ينل ما يكفي من التبن، أو أن بارني الكبير بدلا من أن يعتني بالفرس تركه لإبنه.

وأمام كل هذه الشكاوى يقف العبد صامتًا، مستر اللويد لا يحتمل أي اعتراض من العبد، وحين يتكلم لا بد أن يقف العبد صامتا ومرتعشا.

لقد رأيت الكولونيل اللويد يجعل بارني العجوز- الذي يبلغ ماب ين الخمسين والستين من العمر- يعري رأسه الأصلع، ويركع على الأرض الباردة والرطبة ويتلقى على عنقه وكتفيه العاريتين أكثر من ثلاثين جلدة في كل مرة.

كان للكولونيل اللويد ثلاثة أبناء، هم إدوارد، موارى، ودانيال، وثلاثة أزواج لبناته هم مستر ويندر، مستر نيكسلون، ومستر لونديس، وكلهم يعيشون في الضيعة الكبيرة ويتمتعون بجلد الخدم وتضرعهم، بدءا من بارني الكبير حتى ويليام ويلكسي سائق إحدى العربات الصغيرة، لقد رأيت ويندر يجعل أحد

الخـدم يقـف بعيـدا عنـه مسـافة مناسـبة كي يلمسـه طـرف السـوط، ومـع كل ضربـة كانـت تظهـر عـلى ظهـر الخـادم فجـوة كبـيرة.

إن وصـف ثـروة الكولونيـل اللويـد مسـاو تقريبـا لوصـف كـثرة الأعـمال، إنـه يحتفـظ بخـدم يـتراوح عددهـم بـين عـشرة وخمسـة عـشر في المنـزل، ولقـد قـال مـرة إنـه يملـك ألـف عبـد، وأعتقـد أن هـذا مخالـف للحقيقـة، فالكولونيـل يملـك الكثـير جـدًا، حتـى أنـه لا يعرفهـم حـين يراهـم، كـما أنـه لا يعـرف كل عبيـد المـزارع الأخـرى، ولقـد قيـل إنـه بينـما كان يقـود حصانـه عـلى الطريـق ذات يـوم، قابـل رجـلا ملونـا فخاطبـه بالإسـلوب المعتـاد لمخاطبـة الملونـين في اللهجـة السـائدة بالجنـوب:

- هنا يا ولد،، من يملكك؟

أجاب العبد:

- الكولونيل اللويد.

- حسن، هل يعاملك الكولونيل معاملة طيبة؟

وكانت الإجابة الجاهزة هي:

- لا ياسيدي.

- ماذا؟ هل يجعلك تعمل كثيرًا؟

- أجل ياسيدي.

- حسنًا.. ألا يعطيك ما يكفي لتأكل؟

- بلى يا سيدي، إنه يعطيني ما هو مقرر.

عـاد الكولونيـل وتأكـد مـن أنه مالـك العبـد!، واسـتمر في طريقه،

مكتبة
t.me/soramnqraa

واستمر العبد في عمله غير حالم بأنه إنما كان يتحدث مع سيده، ولم يفكر أن يتحدث مع أحد فيما جرى، مر أسبوعان أو ثلاثة على الحادث، ثم أخبر المراقب العبد التعس بأنه بسبب خطأ ارتكبه في حق سيده، سوف يُباع إلى تاجر ولاية جورجيا، وسرعان ما قيد العبد بالسلاسل، وبلا أي إنذار سابق، قُذف به بعيدا، وإلى الأبد عن أسرته وأصدقائه بيدٍ أقسى من الموت، كانت هذه هي عاقبة قول الحق، الحق البسيط في الإجابة على سلسلة من الأسئلة البسيطة.

بناء على هذه الحقائق، كان العبيد حين يُسألون عن أحوالهم، وخصائص أسيادهم، يقولون- تقريبا، وبشكل عام- إنهم راضون، وإن أسيادهم طيبون، ولقد عرف ملاك العبيد كيف يرسلون الجواسيس بين عبيدهم ليتأكدوا من آرائهم ومشاعرهم، نتج عن ذلك أن تأسس بين العبيد المثل القاتل الصمت رأس الحكمة، صاروا يقمعون الحق في نفوسهم بدلا من تلقي تبعات البوح به، فبهذا يثبتون أنفسهم- في نظر أسيادهم- كجزء من الجنس البشري، وهكذا فإذا كان لدى العبيد شيء يقولونه عن أسيادهم، فهو عموما يدور حول جمائل هؤلاء الأسياد، خاصة حين يكون الحديث موجها لرجل غير مجرب، لقد سُئلتُ كثيراً وأنا عبد، ما إذا كان سيدي طيبا، ولا أذكر أنني أعطيت قط إجابة سلبية، ولم أعتبر نفسي متحدثًا بما هو زائف على الإطلاق، ذلك أنني دائما كنت أقيس طيبة سيدي، بمستوى الطيبة المعتمد بين ملاك العبيد حولنا.

بالإضافة إلى ذلك إن العبيد يشبهون الناس الآخرين، ويعون تماما التعصبات الشائعة بين غيرهم، وهم يعتبرون أنفسهم بدورهم أفضل من غيرهم، وتحت تأثير هذا التعصب اعتقد الكثيرون أن أسيادهم أفضل من أسياد العبيد الآخرين، ويتم هذا أيضا حين يكون العكس هو الصحيح، لقد شاع بين العبيد الشجار حول الفضائل النسبية لأسيادهم فكل فريق كان راضيًا عن الطيبة الفائقة لسيده أمام الآخرين، وفي نفس الوقت، كانوا يمقتون جميعا أسيادهم حين ينفصلون، هكذا كان الحال في ضيعتنا، إذا قابل عبيد الكولونيل اللويد عبيد جاكوب جيبسون نادرًا ما ينفصلون دون معركة بسبب أسيادهم، يقرر عبيد الكولونيل اللويد أنه الأغنى، ويتباهى عبيد جيبسون بأنه الأكثر أناقة والأكثر رجولة، عبيد الكولونيل اللويد يفاخرون بقدرته على بيع وشراء جاكوب جيبسون، عبيد جاكوب جيبسون يفاخرون بقدرته على أن يجلد الكولونيل اللويد.

كانت هذه المماحكات تنتهي غالبا بقتال بين الفريقين، والفائزون يعتزون بأنهم حازوا نقطة في هذا المجال، ويبدون وكأنهم قد أقتنعوا بأن عظمة سيدهم قد حلت بهم، حقا لقد كان شيئًا سيئًا أن تكون عبدًا، ولكن أن تكون عبدًا لرجل فقير فقد كان ذلك هو الشيء المحتقر.

*****

- 4 -

ظل مستر هوبكينز وقتا قصيرًا كمراقب، لماذا كان عمله قصيرًا؟ لا أعرف، ربما كانت تنقصه القسوة الضرورية ليرضي الكولونيل اللويد.

لقد حل محله مستر أوستن جور، الرجل الذي يملك إلى درجة كبيرة، كل سمات الشخصية التى لا غنى عنها، لما كان يسمى بمراقب الدرجة الأولى.

لقد خدم مستر جور الكولونيل اللويد، كمراقب لواحدة من المزارع المحيطة، وظهر جديرًا بالمركز السامي للمراقب في الضيعة الكبيرة، لقد كان رجلا متفاخرًا، طموحًا ومثابرًا، وكان ماكرًا وقاسيًا وجامد القلب، كان بالضبط الرجل المناسب لهذا المكان، وكان المكان مناسبا له، فهو يهيء له المجال للممارسة التامة لكل قواه، وهو فيه يبدو في بيئتة تماما، كان واحدًا من الذين يعتبرون اللمحة، أو الكلمة، أو الحركة من جانب العبد، وقاحة، ويتعاملون معها على هذا الأساس، لم تكن هناك إجابة على ما يقول، ولا تفسير يسمح به للعبد الذي يجد نفسه متهما بأي خطأ، لقد أدرك مستر جور تماما الهدف المقرر من قبل ملاك العبيد أن تقاسي مجموعة من العبيد تحت السوط

أفضل من اتهام المراقب في حضور العبيد بارتكاب الخطأ.

لم يكن هنالك معنى لمدى براءة العبد، فهذا لا يقدم له شيئا حين يتهمه مستر جور بأي سوء سلوك، أن تُتهم يعني أن تُدان، أن تُدان يعني أن تُعاقب، الواحدة تتبع الأخرى في تأكيد لا ينفصم، تفادي العقاب يعني تفادي الاتهام أصلا، وقليل من العبيد من كان لهم الحظ في ذلك تحت مراقبة مستر جور.

كان فخورًا تمامًا بإجباره العبيد على الولاء الحقير، ومتذللاً تمامًا ليخضع عند أقدام سيده، كان طموحا إلى درجة كبيرة فلا يرضي بأقل من أعلى مرتبة بين المراقبين، ومثابرًا إلى درجة كافية ليصل إلى قمة طموحه.

كان قاسيا في عقابه، خبيثا يستخدم أحط الحِيَل، جامد القلب لدرجة تُفقده الإحساس بصوت الضمير، لقد كان من بين كل المراقبين أكثر من يرهبهم العبيد، مظهره يسبب الألم، وعيناه تلمعان بالفوضى، ونادرا ما يُسمع صوته الحاد الحاسم دون أن يثير الرعب والرعشة في أبدانهم، كان مستر جور رجلا ميتا، ورغم أنه شاب إلا أنه لم يمل إلى النكات، ولم ينطق بكلمة ضاحكة، ونادرا ما ابتسم، كانت كلماته متسقة تماما مع نظراته، ونظراته متسقة تماما مع كلماته.

أحيانا كان المراقبون يلقون ببعض النكات، حتى مع العبيد، ولم يكن مستر جور كذلك، إنه يتكلم ليأمر، ويأمر كي يُطاع، يتعامل مع الكلمات باقتصاد، ومع السوط بإسراف، نادرا ما

يستخدم الأولى، بينما يستخدم الأخير جيدا، وحين يجلد أحد العبيد يبدو كمن يؤدي واجبا لازما، ولا يخشي أية عاقبة، لا يتردد في عمل أي شيء، حتى لو كان غير معقول، فمن ناحيته لا يجد في ذلك أي تناقض، ولم يكن يتوعد إلا ليفي، كان بجملة واحدة رجل الجمود الأكثر صلابة ورجل البرود الحجري، كانت بربريته تتساوى مع برودة المطلق، الذي به ينفذ أكثر الأعمال وحشية وبشاعة على العبيد الذين يتولى أمرهم، لقد استعد- ذات مرة- ليجلد أحد عبيد الكولونيل اللويد، وكان اسمه ديمبي، بعد أن تلقى ديمبي عدة جلدات قليلة، أراد أن يتخلص من الجلد فجرى وألقي بنفسه في جدول، ووقف في عمق يصل فيه الماء إلى كتفيه ورفض الخروج، أعلمه مستر جور أنه سيناديه ثلاث مرات فإذا لم يخرج عند النداء الثالث أطلق عليه النار، عند أول نداء لم يستجب ديمبي وظل واقفا، ومر النداء الثاني والثالث ولم تتغير النتيجة، حينئذ ودون استشارة أحد، أو اعتبار لأي أحد، ودون حتى أن يطلق مستر جور نداء إضافيا، رفع بندقية إلى وجهة جاعلا من ضحيته هدفا جامدا، وفي لحظة لم يعد هنالك ديمبي البائس، خرج جسده الممزق من المشهد، وخضب دمه ماء الجدول حيث كان يقف.

دوامة من الرعب اشتعلت في كل روح في الضيعة إلا مستر جور، هو وحده الذي بدا باردًا وواثقا، سأله الكولونيل اللويد، وسيدي القديم، ما الذي دفعه إلى هذا العمل الخارق

وكانت إجابته- بقدر ما أستطيع أن أتذكر- هي أن ديمبي أصبح متمردًا، وكان مثالا خطرا للعبيد الآخرين، وبدون مثل هذه الفعل من جانبه سوف تكون النهاية فوضى شاملة، وخروجا على كل القوانين والنظم في الضيعة، وقال إنه إذا رفض أحد العبيد الإصلاح، ولم يُقتل، فإن العبيد الآخرين سيصبحون نسخة عنه، والنتيجة ستكون تحرير العبيد، وعبودية البيض.

كان دفاع مستر جور مُرضيا، واستمر في مركزه كمراقب للضيعة، وذاعت شهرته كمراقب خارجها، ولم تخضع جريمته المرعبة لأية مساءلة قانونية، لقد ارتكب جريمته في حضور العبيد، وهم بالطبع لا يستطيعون تأسيس موقف، أو تقديم شهادة ضده، وهكذا فإن مرتكب جريمة من أكثر الجرائم دموية يعيش مفلتا من العدالة، ودون لوم من المجتمع الذي يعيش فيه، لقد كان مستر جور يعيش في مزرعة سانت ميشيل، بمقاطعة تالبوت، بولاية ميرلاند حين غادرتها، وإذا كان لا يزال حيّا، فمن المحتمل أنه لايزال يعيش هناك الآن، وإذا كان الأمر كذلك، فهو الآن كما كان من قبل، يعيش مبجلا ومحترما برغم جريمته، إن روحه لم يصبها دم أخيه بالعار.

إنني أتحدث واثقًا حين أقول هذا، إن قتل عبد أو أي شخص ملون في مقاطعة تالبوت بولاية ميريلاند لم يعامل كجريمة حتى من قبل المجتمع، لقد قتل مستر توماس لينمان، من سانت ميشيل، عبدين، قتل أحدهما بالبلطة فأخرج مخه من رأسه، واعتاد أن يزهو بهذا العمل الدموي المرعب، لقد سمعته

يقول ضاحكا، من بين أشياء أخرى، بأنه أول فاعل خير في بلده، وحين يفعل الآخرون مثله سيتحررون من الزنوج.

زوجة مستر جيليس هيكس التي تعيش على بعد مسافة قصيرة من حيث كنت أعيش قتلت ابنة خال زوجتي، كانت فتاة صغيرة بين الخامسة والسادسة عشرة من عمرها، حطمت مسز هيكس جسدها بأكثر الأفعال بشاعة، كسرت أنفها وقفصها الصدري بهراوة، وماتت الفتاة المسكينة بعد ساعات قليلة، وبسرعة تم دفنها، لكن قبل دفنها قرر الطبيب الشرعي بأنها من جراء الضرب الحاد، لقد كان الذنب الذي جنته هذه الفتاة هو أنها بينما كانت تجلس تلك الليلة ترعى طفل مسز هيكس نامت وصاح الطفل، لقد فقدت الفتاة كثيرا من راحتها في ليال طويلة سابقة فنامت ولم تسمع صراخ الطفل، كانت مسز هيكس نائمة في نفس الغرفة فاستيقظت، ولما وجدت الفتاة بطيئة الحركة، قفزت من سريرها وأمسكت بعصا من شجر البلوط من بين أخشاب المدفأة، وبها كسرت أنف الفتاة، وحطمت قفصها الصدري، وهكذا أنهت حياتها، لن أقول إن هذا القتل المرعب لم يثر أي إحساس في البلدة، لقد أثار إحساسا، لكن لم يكن كافيا لتلقى القاتلة عقابها، كان هنالك أمر بالقبض عليها لكن لم ينفذ أبدا، وهكذا نجت مسز هيكس، ليس فقط من العقاب، ولكن أيضا من ألم المثول أمام المحكمة جزاء جريمتها البشعة.

إنني- وبينما أفصل الأفعال الدموية التي جرت خلال

وجـودي في ضيعـة الكولونيـل اللويـد- سـوف أقـص باختصـار حادثـة أخـرى حدثـت في نفـس الوقـت الـذي قتـل فيـه مسـتر جـور (ديمبـي)، لقـد أعتـاد عبيـد الكولونيـل إنفـاق جـزء مـن ليـالي وأيـام الآحـاد في صيـد المحـار، بهـذه الطريقـة كانـوا يعوضـون نقـص حصصهـم الشـحيحة، وحـدث أن رجـلا عجـوزا مـن عبيـد الكولونيـل، وخـلال انهماكـه في الصيـد، أصبـح خلـف حـدود ضيعة الكولونيـل وداخـل منطقـة مسـتربيل بونـدلي، عنـد هـذه اللحظـة تنـاول مسـتر بونـدلي بندقيتـه وأتى إلى الشـاطئ وأطلـق محتوياتهـا القاتلـة عـلى العجـوز البائـس، جـاء مسـتر بونـدلي في اليـوم التـالي لـيرى الكولونيـل اللويـد، ربمـا ليدفـع لـه ثمـن ممتلكاتـه أو ليـبرر لـه فعلتـه، لا أعـرف، عـلى أية حـال، فـإن هـذه الأفعال الشـيطانية سرعـان مـا كانـت تُنسى، ولا يبقـي إلا القليـل جـدا ليقـال عنهـا، ولا يوجـد شيء ليُعمـل، لقـد صـار قـولا شـائعا- حتـى بـين الأولاد البيـض الصغـار- إن قتـل زنجـي يسـاوي نصـف سـنت، ونصـف سـنت لتدفنـه.

*****

- 5 -

لم تختلف معاملتي، بينما كنت أعيش في ضيعة الكولونيل اللويد عن تلك التي يلقاها الأطفال العبيد، كانت حياتي تشبه حياتهم، ولم أكن كبيرا بما يكفي للعمل في الحقول، وكانت الأعمال الأخرى التي أقوم بها صغيرة، ومن ثم كان لدي الكثير من وقت الفراغ، أكبر ماكنت أقوم به، كان أن أقود الأبقار في المساء إلى الحظيرة، أو أهش الدجاج عن الحديقة، أو أنظف الفناء الأمامي، أو ترسلني مسز لوكريشيا مع ابنة سيدي القديم في مشاوير أقضي فيها بعض حاجاتها، كنت أمضي معظم وقت فراغي في مساعدة السيد دانيال اللويد في البحث عن طيوره بعد أن يطلق عليها النار، كان ارتباطي بالسيد دانيال ذا فائدة، فقد أصبح منجذبا نحوي تماما، وشكل نوعا من الحماية لي، لم يكن يسمح للأولاد الكبار بالاحتيال عليّ، وكان يقتسم كعكه معي، نادرا ما جُلدت من قبل سيدي القديم، وعانيت القليل من كل شيء إلا البرد والجوع، عانيت كثيرا من الجوع، وأكثر من الكثير من البرد، في الصيف الحار، وفي الشتاء القارس، كنت عاريا تقريبا، لا حذاء، لا جورب، لا سترة ولا سروال، لا شيء فوقي سوى قميص من الكتان الخشن

يصل فقط إلى ركبتي، ولم يكن لي سرير، كان يجب أن أهلك من البرد، لكني في الليالي الباردة اعتدت أن أسرق جوالا مما يُستخدم في حمل الذرة إلى الطاحونة، وأزحف داخله، أنام على الأرض الباردة الرطبة اللزجة، رأسي داخل الجوال وقدماي خارجه، تشققت قدماي من أثر الثلج إلى الدرجة التي تكفي القلم الذي أكتب به الآن كي يرقد في شقوقها، ولم نكن نحصل على حصصنا من الطعام بانتظام، وكان طعامنا وجبة من الذرة الجافة المغلية في الماء، كان هذا يوضع في إناء خشبي كبير أو معجنة فوق الأرض ثم يُنادَى الأطفال كالخنازير، ومثل الخنازير كانوا يأتون ويلتهمونه، البعض بالمحار والآخرون بقطع من الأصداف، البعض بيديه العاريتين ولا أحد يستخدم الملاعق، والذي يأكل أسرع هو الذي يحصل على كمية أكبر، الأقوى يذوذ عن المكان الأفضل، وقليلون هم الذين يتركون الإناء راضين.

من المحتمل أنني كنت بين السابعة والثامنة من عمري حين غادرت ضيعة الكولونيل اللويد، لقد تركتها سعيدًا، ولن أنسى أبدا السعادة التي استقبلت بها النبأ بأن سيدي القديم أنطوني وافق على ذهابي إلى بالتيمور لأعيش مع مستر هوف أولد، وهو أخو توماس أولد زوج ابنة سيدي القديم، لقد عرفت النبأ قبل رحيلي بثلاثة أيام، فكانت هذه الأيام الثلاثة من أسعد الأيام التي لم أسعد بمثلها قط، أمضيت أكثر وقتي في النهر أغسل عن نفسي قذارة المزرعة وأعد نفسي للرحيل،

لم يكن مبعث هذه النظافة من عندي، ولم أفكر في التفاخر بمظهري، وليس لرغبة مني أنفقت الوقت في الاستحمام، ولكن كان ذلك لأن مسز لوكريشيا أخبرتني بأن عليّ أن أتخلص من كل القشف فوق قدمي وركبتي قبل أن أستطيع الذهاب إلى بالتيمور، لأن الناس في بالتيمور نظيفون جدا، وسيضحكون من منظري إذا بدوت قذرًا، بالإضافة إلى أنها سوف تعطيني سروالا يجب ألا أرتديه قبل أن أتخلص من كل القذارة التي على جسدي، كانت فكرة امتلاك سروال عظيمة حقا، كانت تقريبا حافزًا كافيًا، ليس فقط لجعلي أتخلص مما قد يسميه مربو الخنازير الجرب، ولكن من جلدي نفسه، وذهبت إليها بمظهر طيب، وقد قمت لأول مرة بعمل لأمل في جائزة.

إن الوشائج التي تربط الأطفال ببيوتهم كانت كلها محل شك في حالتي، لذلك لم يسبب رحيلي أية أزمة لي، لقد كان بيتي مُتعبا، لم يكن بيتا بالنسبة لي، ولم يكن هناك رحيل منه، ولم أشعر بأني أترك أي شيء عزيز قد يسرني إذا بقيت، كانت أمي قد ماتت، وجدتي تعيش بعيدًا ونادرًا ما أراها، وكان لي أختان وأخ عاشوا في نفس المكان معي، لكن الفصل المبكر لنا عن أمنا طمس تقريبا حقيقة قرابتنا من ذاكرتنا، لقد تطلعت إلى بيت في مكان آخر، وكنت واثقا أنه لا وجود لبيت تكون متعتي فيه أقل من الذي عشت فيه، وإذا وجدت في بيتي الجديدة قسوة، جوعا أو جلدا أو عريا، فإن ما يعزيني هو أنني لم أنج من أي منها، خاصة وأني نلت منها

أكثر مما أتحمل في منزل سيدي القديم، وحيث خبرتها هناك، فمن الطبيعي أن أعتاد القدرة عليها في أي مكان، وخاصة في بالتيمور، ذلك أنه كان لدي شعور ما عن بالتيمور يعبر عنه المثل الإنجليزي القائل «أن تُشنق في إنجلترا خير من أن تموت طبيعيا في إيرلندا».

كانت لدي رغبة عارمة لرؤية بالتيمور، ولقد أثارني ابن خالي توم- رغم أنه لا يتكلم بطلاقة- بهذه الرغبة، لقد أشعل وصفه للمكان من لا شيء، لم أذكر قط أي شيء في المنزل الكبير بوصفه جميلا أو قويا إلا وقال إنه رأى في بالتيمور ما هو أكثر منه جمالا وقوة، حتى المنزل الكبير نفسه، بما فيه من لوحات، فهو ناقص بالقياس إلى المباني في بالتيمور، كانت رغبتي قوية للغاية حتى فكرت أن إشباعها سيعوضني تماما عن أي راحة أفقدها من جراء هذا الاستبدال، غادرت المكان دون أسف وبآمال كبيرة بمستقبل سعيد.

أبحرنا عبر نهر المايلز صباح يوم السبت، أتذكر أسماء الأيام فقط، لأنه في ذلك الوقت لم تكن لدي أية معرفة عن أيام الشهر ولا شهور السنة، عند بداية الإبحار تقدمت إلى مؤخرة السفينة، وألقيت على ضيعة الكولونيل اللويد ما تمنيت أن يكون النظرة الأخيرة، ثم وضعت نفسي في مقدمة السفينة، وهنالك أمضيت ما تبقى من اليوم ناظرًا إلى الأمام، مسليا نفسي بما هو بعيد أكثر مما أراه قريبًا أو خلفي.

وصلنا «أنابوليس»- عاصمة الولاية- في عصر ذلك اليوم،

توقفنا لكن للحظات، ومن ثم لم أجد وقتا للخروج إلى الشاطئ، كانت هذه أول أكبر بلدة رأيتها في حياتي، رغم أنها تبدو صغيرة بالمقارنة مع بعض قريناتها في نيو إنجلاند، فكرت أنها مكان رائع لأن حجمها كان له تأثير خادع أكثر من ضيعة المنزل الكبير!

وصلنا بالتيمور مبكرًا صباح الأحد، رسونا عند مرسى سميث، ليس بعيدًا من مرسى باولي، كان معنا على ظهر المركب قطيع كبير من الأغنام، وبعد المساعدة على سوقها إلى مذبح مستر كورتيس في لودن سلوترز هيل قادني ريتش، أحد العاملين على السفينة إلى بيتي الجديد في إيليشيانا ستريت بالقرب من ترسانة مستر جاردنر في فيلزبوبنت.

كان كل من مستر ومسز أولد بالمنزل، وقابلاني عند الباب مع ابنهما الصغير توماس الذي سأقوم على رعايته، هناك رأيت ما لم أره من قبل، وجها أبيض يشع بأكثر الانفعالات طيبة، كان ذلك وجه سيدتي الجديدة صوفيا أولد، أتمنى لو أستطيع أن أصف نشوة الفرح التي لمعت في روحي حين رأيت وجهها، لقد كان شكلا جديدًا وغريبا على، أضاء طريقي بنور السعادة، لقد بُلغت بالعناية بتوماس الصغير، وهكذا دخلت في واجباتي في بيتي الجديد بأكثر المشاهد سعادة أمامي، إنني أنظر إلى رحيلي عن ضيعة الكولونيل اللويد كواحد من أكثر الأحداث سرورا في حياتي، من الممكن، ومن الجائز تماما، أنه لولا الظرف البسيط بإبعادي عن تلك الضيعة إلى بالتيمور،

كنت اليوم بدلا من وجودي هنا جالسا إلى مكتبى، مستمتعا بالحرية، وسعيدًا بالحياة المنزلية أكتب هذه السيرة، كنت ما زلت أرسف في أغلال العبودية، إن الذهاب للعيش في بالتيمور أسس قاعدة، وفتح طريقا، لكل سعادتي اللاحقة، دائما أعتبر هذا الرحيل أول تجسيد واضح لذلك النوع من العناية الإلهية التي تعهدتني منذ ذلك الحين وكللت حياتي بكثير من الكرم، لقد اعتبرت اختياري بالذات لهذا الرحيل شيئا غير عادى، كان هناك عدد من الأطفال العبيد يمكن أن يرسلوا إلى بالتيمور، كان هناك أولئك الصغار، ومن هم في نفس عمري، لكنني اخترت من بينهم جميعا وكنت الأول والأخير، ربما أبدو خياليا، وأنانيا لاعتباري ذلك الحدث تدخلا خاصا للعناية الإلهية، لكن أكون مزيفا لعواطفي إذا قمعت هذه الفكرة، أفضل أن أكون صادقا مع نفسي، حتى في الجرأة في التقليل من شأن الآخرين، عن أن أكون مزيفا وأتسبب في مقت نفسي، إنني- منذ ذكرياتي الأولى- تمسكت باعتقاد عميق بأن العبودية لن تكون قادرة أبدًا على أن تمسك بي داخل حضنها الأحمق، وفي ساعات الظلام الحالك، أيام استعبادى، كانت كلمة الصدق الحية هذه، وروح الأمل، لا تنفصلان عنى، بل بقيَتا مثل الملائكة المقربين، تهتفان لي خلال الظلام، هذه الروح الطيبة كانت من عند الله، وله الشكر والحمد.

- 6 -

برهنت سيدتي الجديدة على أنها كانت كما بدت لي عند لقائي الأول بها، امرأة تحمل أطيب قلب وأجمل مشاعر، لم تكن قد امتلكت عبدًا قبلي، وكانت تعمل قبل زواجها، وتعتمد على نفسها لتحيا، كانت تتاجر في المنسوجات، كنت في دهشة كبيرة أمام طيبتها، ونادرًا ما عرفت كيف أتصرف أمامها، لم تكن تشبه قط أيه امرأة بيضاء رأيتها من قبل، ولم يكن ممكنا معاملتها كما اعتدت أن أتعامل مع السيدات البيض الأخريات، كل ما تعلمته مَن قبل أصبح غير ذي أهمية، ولم يكن الانحناء الذليل، وهي العادة المقبولة من العبد، مناسبا حين أصبح أمامها، لم يُفد ذلك في كسب ودها، بل بدت تنزعج منه، لأنها لم تكن تعتبر نظر العبد إليها بشكل مباشر، سفاهة أو سلوكا بشعا، لقد كان أحقر العبيد يجد البساطة في حضورها، ولم يكن أحد يتركها دون شعور جميل برؤيتها، كان وجهها مصنوعا من ابتسامات سماوية، وصوتها من موسيقى ناعمة، ولكن، وا أسفاه! فهذا القلب الطيب لم يبق طويلا هكذا، كان السم المحتوم للقوة غير المسئولة جاهزًا بين يديها، وسرعان ما بدأ عمله المدمر، هاتان العينان

المبتهجتان سرعان ما أصبحتا، تحت تأثير الرق، مشتعلتين بالغضب، ذلك الصوت الذي يصنع التوافق الحلو، تبدل إلى صوت تنافر مرعب أجش، والوجه الملائكي ترك مكانه لوجه الشيطان، بسرعة بعد أن وصلتُ لأعيش بين أسرتها بدأت برقة تعلمني الأبجدية، ثم ساعدتني في تعلم تهجي الكلمات ذات الثلاثة والأربعة أحرف، وعند هذه النقطة من تقدمي اكتشف مستر أولد ما يجرى، وفي الحال منعها من الاستمرار في تعليمي أكثر من ذلك، أخبرها من بين أشياء أخرى قالها، إن هذا غير قانوني، وغير مأمون العواقب، وبنفس كلماته قال إذا أعطيت زنجيا بوصة، سيأخذ ذراعا، لا يجب أن يتعلم الزنجي شيئًا غير طاعة سيده في أن يعمل ما يطلب منه عمله، التعليم يفسد أفضل زنجي في العالم، والآن، إذا علمتِ هذا الزنجي- وكان يقصدنى- القراءة، فلن يبقي هنا، سوف يصبح من غير المناسب له أن يبقى عبدًا، سوف يصبح في الحال متمردًا وبلا نفع لسيده، وبالنسبة له نفسه سيكون ذلك سيئا ومصدرا لألم كبير إذ سيسبب له السخط والتعاسة.

انسكبت هذه الكلمات عميقا في قلبي، حركت فيه العواطف النائمة، واستدعت إلى الوجود تيارًا جديدًا تماما من الأفكار، كانت هذه رؤية خاصة وجديدة تفسر الأشياء الناقصة والمبهمة التي كافح رأسي الصغير عبثا ليفهما، الآن فهمت ما كان بالنسبة لي أكثر المصاعب حيرة، أعني قوة الرجل الأبيض في استعباد الرجل الأسود، لقد كان هذا مكسبا عظيما، ولقد

قدرته عاليا، منذ تلك اللحظة فهمت الطريق من العبودية إلى الحرية، وكان هذا بالضبط ما أردته، وحصلت عليه في وقت أقل مما توقعت، وبينما كنت حزينا بسبب التفكير في خسارتي لمساعدة سيدتي الطيبة، كنت سعيدا بالمعلومة التي لا تقدر، التي كسبتها من سيدى، بالصدفة المحضة، ورغم الوعي بصعوبة التعليم دون مدرس، امتلأتُ بأمل كبير، وهدف ثابت، هو أن أتعلم كيف أقرأ مهما كلفني ذلك من صعاب، إن الطريقة الواثقة جدًا التي تحدث بها سيدى، واجتهاده في التأثير على سيدتي بالحديث عن العواقب الشريرة لتعليمي، أفادا في إقناعي بأنه كان عميق الإحساس بالحقائق التي تفوه بها، لقد وهبني ذلك أفضل تأكيد بأنه لا بد لي من التعويل على الثقة الكبرى في النتائج التي قال عنها إنها ستتبع تعليمي القراءة.

إن أعظم ما يخافه هو أعظم ما أريده، وأعظم ما يحبه هو أعظم ما أكرهه، ما هو بالنسبة إليه شر عظيم يجب تجنبه، كان بالنسبة لي خيرًا عظيمًا يجب إدراكه بتصميم، إن المناقشة التي أدارها بحماس ضد تعليمي القراءة، أفادت فقط في إعطائي الرغبة والتصميم على التعليم، وهكذا ففي تعلمي القراءة أدين تقريبا إلى المعارضة الحادة لسيدي أكثر مما أدين إلى المساعدة الرقيقة لسيدتي، ولقد استفدت من الجانبين.

أقمت فترة قصيرة في بالتيمور قبل أن ألاحظ فارقا أساسيا في

معاملة العبيد بالمقارنة مع ما شاهدته في الريف، عبد المدينة رجل حر تقريبا بالقياس إلى العبد في المزرعة، فهو يحصل على طعام أفضل، وثياب أفضل، ويتمتع بمزايا غير معروفة بالمرة لعبد المزرعة، كانت هناك سمة من الأدب، إحساس بالخجل، يساعدان كثيرًا في كبح أولئك الذين ينفجرون بنفس القسوة السائدة في المزرعة، إن مالك العبيد الذي يصدم إنسانية جيرانه من غير ملاك العبيد بصرخات عبده الجريح يكون معزولا عن الناس، وقَلّ من أراد أن يجر على نفسه سمعة بشعة كسيد قاسٍ، وفوق كل شيء فإن ملاك العبيد هنا لا يحبون أن يشتهروا كبخلاء في تزويد عبيدهم بالطعام، كل مالك للعبيد في المدينة كان يشتاق لأن يذاع عنه أنه يطعم عبيده جيدًا، لذلك فمن المناسب أن أقول إن معظم الملاك كانوا يطعمون عبيدهم بدرجة كافية.

بالطبع كان هناك بعض الاستثناءات المؤلمة لهذه القاعدة، ففي مواجهتنا مباشرة في فيلبوت ستريت، يعيش مستر توماس هاملتون، الذي يمتلك عبدين هما هنريتا، وماري، كانت هنرييتا في حوالي الثانية والعشرين، وماري في حوالي الرابعة عشرة، وكان لهما، من بين كل الوجوه الشاحبة والممزقة التي رأيتها، أكثرها، لا بد أن قلبه كان أقسى من الحجر حتى لا يرق لرؤيتهما، كان رأس ماري ورقبتها وكتفيها جميعها ممزقة مقّرحة، لقد تحسست رأسها أكثر من مرة ووجدته تقريبا مغطي بالبثور المقروحة التي سببها سوط سيدتها القاسية، لم

أعـرف أن سـيدها يجلدهـا دائمـا، لكنـي شـاهدت سـيدتها مسـز هاملتـون وقسـوتها، ذلـك أننـي اعتـدت أن أوجـد في منـزل مسـتر هاملتـون كل يـوم تقريبـا.

لقـد اعتـادت مسـز هاملتـون الجلـوس في مقعـد كبـير في وسـط الغرفـة وسـوط ثقيـل مـن جلـد البقـر دائمـا إلى جانبهـا، ونـادرًا مـا تمـر سـاعة خـلال اليـوم دون أن تُخضّـب بـدم إحـدى هاتـين العبدتـين، نـادرًا مـا تمـر فتـاة جوارهـا دون أن تقـول تحـركي بسرعة أيتهـا السـوداء اللئيمـة، وفي نفـس الوقـت تصـوب إلى رأسـها ضربة بالسـوط أو عـلى الكتفـين فينـزف الـدم، حينئـذ تقـول: خـذي أيتها السـوداء اللئيمـة! ثـم تسـتمر: إذا لم تتحـركي بسرعـة سـأحركك.

ولا ينقطـع الجلـد القـاسي لهاتـين العبدتـين اللتـين تعيشـان نصـف جائعتـين، ونـادرًا مـا عرفتـا طعـم تنـاول وجبـة كاملـة، لقـد شـاهدت مـاري تصـارع الخنازيـر وتزاحمهـم عـلى النفايـات الملقـاة في الشـارع، ولقـد كانـت مـاري ممزقـة ومشـوهة مليئـة بالنـدوب والثقـوب حتـى إنهـا غالبـا مـا كانـت تنـادَى بـ«المُنقَّـرة» لكـثرة ندوبهـا وثقوبهـا، أكـثر مـما تنـادى باسـمها.

*****

- 7 -

عشت بين عائلة السيد هوف نحو سبع سنوات، وخلال هذا الزمن نجحت في تعلم القراءة والكتابة، ومن أجل الوصول إلى ذلك، اضطررت لاستخذام حيل مختلفة.

لم يكن لي مدرس منتظم، فسيدتي التي دفعها لطفها إلى تعليمي اضطرت مع نصح وإرشاد زوجها، ليس فقط للتوقف عن تعليمي، ولكن وقفت ضد أن أتعلم عن طريق أي أحد آخر، من حق سيدتي على أن أقرر أنها لم تتبن هذه المعاملة على الفور، ففي البداية كان ضروريا لها على الأقل أن تتدرب على ممارسة القوة الغاشمة، التي تناسب مهمة معاملتي كما لو كنت قاتلا.

كانت سيدتي كما قلت عنها امرأة ذات قلب رقيق طيب، وفي بساطة روحها تلك بدأت، حين ذهبت لأعيش معهم أول مرة، تعاملني كما هو مفترض في التعامل بين كائنين إنسانيين، إن من واجبات مالك العبد أن يعامل عبده كأنه مجرد متاع، لكن لم يبد أنها مهتمة بهذا الواجب، فبالنسبة إليها لم تكن معاملتي ككائن إنساني خطأ أبدا، ولا خطرًا، كان الرق يؤلمها كما كان بالنسبة لي، حين ذهبت هناك كانت تقية، دافئة،

ذات قلب رقيق، ولم يكن هناك مظهر لألم أو لمعاناة لا يثير دموعها، كانت تطعم الجائع، تكسو العارى، تريح الحزين الذي يأتي إليها، لكن سرعان ما أثبتت العبودية قدرتها على تحويلها عن هذه الصفات السماوية، وتحت تأثيرها أصبح القلب الرقيق حجرًا، والمظهر المشرق ترك مكانه لوحشية النمر، كانت الخطوة الأولى في انحدارها، توقفها عن تعليمي، وها هي قد بدأت في القيام بما أكد عليه زوجها، أصبحت أخيرا أكثر عنفا في معارضتها لتعليمي من زوجها نفسه، ولم تكن راضية بتنفيذ ما أمر به زوجها بشكل بسيط، بل بدت مشتاقة لما هو أكثر.

لم يعد يغضبها شيء مثل رؤيتي ومعي جريدة، بدت كما لو كانت تفكر أنه هنا يربض الخطر، كانت تندفع نحوي بوجه ممتلئ غضبا وتخطف الصحيفة مني بطريقة تكشف تماما عن مخاوفها، لقد كانت امرأة قابلة للتأثير، وسرعان ما أوضحت الخبرة القليلة لها أن التعليم والعبودية لا ينطبقان، منذ ذلك الوقت أصبحت تحت المراقبة الدقيقة، إذا ما بقيت في حجرة منفصلة وقتا طويلا إلى حد ما يصبح ذلك محل ريبة في أن يكون معي كتاب، وفي الحال يتم استدعائي لأدافع عن نفسي، لكن ذلك كله- على أية حال- كان متأخرًا جدًا، فلقد اتخذت الخطوة الأولى، لقد أعطتني سيدتي بتعليمها الأبجدية لي بوصة، ولا يوجد عمل يستطيع منعي من أجعلها ذراعا.

كانت الخطة التي تبنيتها- والتي نجحت فيها- أن أتخذ أصدقاء لي من كل الأولاد البيض الصغار اللذين أقابلهم في الشارع، وأحوّل أكبر عدد أستطيعه منهم إلى معلمين، وبمساعدتهم البرينة، نجحت في أوقات مختلفة، وأماكن مختلفة، في تعلم القراءة في النهاية.

حينما كنت أرسل لأقضي بعض الحاجات، كنت آخذ دائما كتابي معي، وأنهي مشواري بسرعة فأجد الوقت لأتلقى درسا قبل عودتي، اعتدت أيضا أن أحمل معي خبزًا كافيًا مما كان متوفرًا في المنزل، وكنت بمساعدته محل ترحيب من كثير من الأطفال البيض الفقراء من جيراننا، اعتدت أن أعطيهم الخبز الذي في مقابله يعطونني خبزا من المعرفة أكثر قيمة، إنني أرغب بقوة أن أبوح بأسماء اثنين أو ثلاثة من أولئك الأولاد الصغار، على سبيل الشهادة بالعرفان والحب الذي أحمله لهم، لكن الحكمة تمنع، إن ذلك لن يؤذيني، لكن قد يؤذيهم، فمن غير المغفور تقريبا لأحد أن يعلم العبيد القراءة في هذا البلد المسيحيّ، يكفي أن أقول عن هؤلاء الصغار الأعزاء، أنهم يعيشون في فيلبوت ستريت، قريبًا جدا من ترسانة دورجين وبيلي، لقد اعتدت أن أتحدث عن الرق معهم، كثيرا ما أقول لهم «إنني أتمنى لو أصبحت حرًا كما سيصبحون حين يصيرون رجالا أنتم تصبحون أحرارًا بمجرد بلوغكم الواحدة والعشرين، لكنني عبد مدى الحياة، أليس لي الحق في الحرية مثلكم؟».

كانت هذه الكلمات تربكهم، ويعبرون لي عن تعاطفهم الحى، ويملأوننى بالأمل بأن شيئا ما سيحدث وأصبح حرًا.

إننى الآن في حوالي الثانية عشرة من عمري، وفكرة «عبد مدى الحياة» بدأت تزحف بثقل على قلبي، في هذا الوقت تقريبا وجدت كتابا عنوانه «الخطيب الكولومبي»، في كل فرصة سنحت اعتدت قراءة هذا الكتاب، ومن بين أشياء أخرى كثيرة ممتعة وجدت فيه حوارًا بين سيد وعبده، كان العبد متهما بالهروب ثلاث مرات من سيده، وجسد الحوار المحادثة التي جرت بينهما حين أعيد العبد في المرة الثالثة، في هذا الحوار قدم السيد كل أسس نظام الرق، وكلها تخلص منها العبد.

قال العبد أشياء جميلة ومؤثرة في إجابته على سيده، أشياء لها تأثير غير متوقع، وانتهت المحادثة بتحرير العبد من قبل سيده، في نفس الكتاب وجدت إحدى خطب شيريدان القوية عن التحرر الكاثوليكي، قرأتها مرات ومرات بميل لا يقاوم، كانت الوثيقة المختارة بالنسبة لي التي أعطت لسانا للأفكار المحببة إلى روحى، والتي لمعت مرارًا خلال عقلى، وكانت قد ماتت لحاجتي إلى النطق.

لقد كان المعنى الأخلاقي الذي خرجت به من الحوار بين السيد وعبده، هو قوة الحق على الشعور حتى عند مالك العبيد، وما خرجت به من شريدان كان إنكارا شجاعا للعبودية وتزكية قوية للحقوق الإنسانية، لعد أعطتني

قراءة هذه الصفحات القدرة على النطق بأفكاري، وعلى أن أواجه المناقشات التي تدعم العبودية، لكنها- وقد خلصتني من إحدى الصعوبات- أتت لي بأخرى أكثر إيلاما من التي خلصتني منها، فكلما تقدمت في القراءة، كلما تقدمت في بغض وكره مستعبدي، لم أستطع أن أراهم في أية صورة غير أنهم حزمة من اللصوص النابحين الذين تركوا بلادهم وذهبوا إلى إفريقيا، وسرقونا من أوطاننا، وفي بلاد غريبة أجبرونا على العبودية، تقززت منهم باعتبارهم أخس وأحط البشر.

وبينما قرأت وتأملت القضية تأكدت أن القنوط الكامل الذي أشار إليه السيد هوف بأنه سينتج من تعليمي القراءة، قد أقبل فعلا ليعذب ويقلب روحي في نكد لا يوصف، وبينما كنت أنوء تحته أحسست في نفس الوقت أن التعليم أعطاني رؤية لحالتي البائسة لكن دون شفاء، لقد فتح عيني على المستنقع المرعب لكن دون سلم أتسلقه لأخرج منه.

وفي لحظات العذاب حسدت زملائي العبيد على غبائهم، كثيراً، ما تمنيت لو كنت حشرة، فضلت ظروف أخس الزواحف عن ظروفي، وتمنيت أن أكون أي شيء- مهما كان- للتخلص من التفكير، هذا التفكير في حالتي هو الذي عذبني، ولم يكن هناك خلاص منه.**مكتبة .. سُر مَن قرأ**

لقد كان يضغط عليّ في كل موضوع أراه أو أسمعه، قريبًا أو بعيدا، لقد أثار السهم الفضي للحرية في روحي يقظة خالدة، ظهرت الحرية ولن تختفي إلى الأبد، كنت أسمعها

في كل صوت، وأراها في كل شيء، كانت حاضرة جدا لتعذبني بالإحساس بظرفي البائس، لم أر شيئا دون الشعور بها، بدت من خلال كل نجم، ابتسمت في كل سكون، تنفست في كل روح، وتحركت في كل عاصفة، غالبا ما وجدت نفسي آسفا على وجودي وراغبا في موتي ولكن لأمل في الحرية لم أفكر في أنه يجب أن أقتل نفسي، أو أفعل شيئا أقتل في سبيله.

وبينما كنت في هذه الحالة من العقل، كنت مشتاقا لسماع أي شخص يتحدث عن العبودية، كنت منصتا جاهزًا، وفي كل لحظة كنت أسمع شيئًا عن «أنصار الإلغاء»، كان ذلك قبل أن أكتشف معنى الكلمة، ولقد كانت دائما تستخدم في سياق يجعلها كلمة محببة لي، إذا هرب عبد ونجح، أو إذا قتل عبد سيده، أو أشعل النار في مخزن الغلال، أو ارتكب أي فعل خاطئ في نظر مالكه، كان الحديث يدور حوله كثمرة لدعوة «الإلغاء».

مستمعا إلى هذه الكلمة في هذا السياق دائما قررت أن أتعلم معناها، قدم لي القاموس، القليل، ولم يساعدني، وجدت أنها فعل «الإلغاء» لكن لم أعرف ما هو الذي يجب إلغاؤه، ارتبكت، لم أقدر على سؤال أي شخص عن معناها لأنني كنت عارفًا بأنهم أرادوا لي أن أعرف القليل عنها، وبعد انتظار صبور حصلت على إحدى صحف مدينتنا، وجدت أنها تحتوي على إحصاء بعدد القداسات المقامة من قبل سكان الشمال يصلون فيها من أجل إلغاء الرق في مقاطعة كولومبيا، وتجارة الرقيق بين الولايات،

منذ هذا الوقت فهمت معنى كلمة «إلغاء»، و«المطالبين بالإلغاء»، وأصبحت دائما حين تنطق هذه الكلمة أقترب متوقعا أن أسمع شيئا هاما لي ولزملائي العبيد، سطع النور داخلي شيئًا فشيئًا، وذهبت يوما إلى رصيف مستر ويترز، وحين رأيت اثنين من الإيرلنديين يفرغان قاربا مشحونا بالحجارة، ذهبت دون أن يسألني أحد لمساعدتهما، بعد أن انتهينا أقبل أحدهما نحوي وسألني ما إذا كنت عبدًا، أجبت بأنني كذلك، سألني هل أنت عبد مدى الحياة؟! أجبت إنني كذلك، وبدأ الإيرلندي الطيب متأثرا بعمق، قال للآخر بأنه من المؤسف أن شابا صغيرًا جميلًا مثلي يكون عبدًا مدى الحياة، ثم قال إنه من العار أن يملكني أحد، ونصحاني بالهرب إلى الشمال حيث سأجد هناك أصدقاء، وحيث أصبح حرًا، تظاهرت بأني لم أتأثر بما قالا، وعاملتهما كما لو لم أفهمهما حيث خفت أن يغدرا بي، لقد عُرف عن الرجال البيض أنهم يشجعون العبيد على الهرب ثم يقبضون هم أنفسهم عليهم، ويعيدونهم إلى أسيادهم ليحصلوا على المكافأة، خفت أن يفعل بي ذلك هذان الرجلان ذوا المظهر الطيب، لكنني لم أنس نصيحتهما، ومنذ ذلك الوقت خططت للهرب، تطلعت لوقت يكون آمنا لي فأهرب، كنت أصغر من أن أفكر في إنجاز ذلك على الفور، إلى جانب أنني رغبت في تعلم كيف أكتب، ذلك يعطيني الفرصة لأكتب تصريحي الخاص، وملأت نفسي بالأمل في أنني يوما ما سأجد فرصة طيبة، وفي نفس الوقت كنت أتعلم الكتابة.

لقد أتتني فكرة ضرورة تعلم الكتابة حين كنت أرى بشكل دائم نجاري السفن في ترسانة دورجين وبيلى، وهم يكتبون على قطع الخشب التي ينشرونها اسم جزء السفينة التي ستستخدم فيه، كانوا يضعون علامة «ش»- التي تعني شمال- على لوح الخشب الخاص بالجانب الأيسر من السفينة، وعلامة «ي»- التي تعني يمين- على لوح الخشب الخاص بالجانب الأيمن، وعلي اللوح الذي سيستخذم في الجانب الأيسر من الأمام يضعون علامة «ش. أ» التي تعني شمال من الأمام وكذلك «ي. أ» لليمين من الأمام، وللمؤخرة من الناحية اليسرى يضعون علامة «ش. م»، وللمؤخرة من الناحية اليمنى يضعون علامة «ي. م»، سرعان ما تعلمت ما ترمز إليه هذه الحروف، وماذا ينوي النجارون حين يرصّون ألواح الخشب في الترسانة، على الفور بدأت في نسخها، وفي وقت قصير كنت قادرا على كتابة الحروف الأربعة، وكنت بعد ذلك حين أقابل أي صبي أعرف أنه يستطيع الكتابة أخبره أني أستطيع أن أكتب مثله فيقول لا أصدقك، دعني أراك تفعل ذلك، فأكتب حينئذ الحروف التي كنت محظوظا جدًا بتعلمها، وأسأله أن يتفوق على، وبهذه الطريقة تلقيت دروسا طيبة في الكتابة لم يكن ممكنا أبدًا أن أحصل عليها بطريقة أخرى.

خلال هذا الوقت، كانت كراستي هي الأسوار والحوائط والأرصفة، وكان قلبي ومدادي مجموعة من قطع الطباشير، وهكذا تعلمت- بشكل رئيسي -كيف أكتب، ثم بدأت نسخ

الحروف المائلة من «كتاب ويبستر للتهجي»، حتى استطعت نسخها كلها دون النظر في الكتاب، في ذلك الوقت ذهب سيدي الصغير توماس إلى المدرسة، وتعلم كيف يكتب، وكتب عددًا من الكراسات التي كان يأتي بها إلى المنزل، وكانت تعرض على بعض من جيراننا الأقربين، ثم تترك جانبا، وكانت سيدتي قد اعتادت الذهاب لدرس في الكنيسة في ويلك ستريت عصر كل يوم اثنين وتتركني في البيت، حينئذ كنت أمضي الوقت أكتب في الأماكن الخالية من كراسة سيدي توماس ناسخا ما كان قد كتبه هو.

واصلت ذلك حتى استطعت الكتابة وتحسن خطي ليشبه كثيرا خط سيدي توماس، وهكذا بعد جهد طويل شاق استمر لسنوات نجحت أخيرًا في تعلم كيف أكتب.

*****

- 8 -

بعد وقت قصير من ذهابي للعيش في بالتيمور، مات ريتشارد الابن الأصغر لسيدي القديم، وبعد موته بنحو ثلاثة أعوام ونصف، مات سيدي القديم، كابتن أنطوني، تاركا ابنه أندرو وابنته لوكريشيا ليقتسما مزرعته، لقد مات سيدي القديم خلال زيارة لابنته في هيلسبورو، ولأن ذلك حدث فجأة لم يترك أية وصية لترتيب أملاكه، لذلك كان من الضروري تقييم الممتلكات التي سوف يتم تقسيمها بين مسز لوكريشيا والسيد أندرو.

على الفور تم إرسالي ليتم تثميني مع الممتلكات، وهنا مرة أخرى ثارت مشاعري كراهية للرق، وأصبحت لدي الآن صورة جديدة لوضعي المنحط، من قبل، ربما لم أكن عديم الإحساس تماما بقدري، ولكني كنت هكذا إلى حد ما.

غادرت بالتيمور بقلب صغير مقهور بالحزن، وروح مليئة بالتخوف، أخذت طريقي مع الكابتن رودي في السفينة «وايلدكات»، وبعد نحو أربع وعشرين ساعة من الإبحار، وجدت نفسي بالقرب من مكان مولدي، الآن أصبحت غائبا عنه تقريبا، وربما بالضبط، خمس سنوات، ورغم ذلك تذكرت المكان جيدا.

كنت في حوالي الخامسة حين فارقته للعيش مع سيدي القديم في ضيعة الكولونيل اللويد، ومن ثم فأنا الآن بين العاشرة والحادية عشرة من عمري.

تم ترتيبنا جميعًا في عملية التقييم، رجالا ونساءً، كبارًا وشبابًا، متزوجين وعزابًا، وذلك مع الخيل والأغنام والخنازير، كان هناك خيول ورجال، أبقار ونساء، وخنازير وأطفال، والجميع يتمتعون بنفس مستوى الوجود، وخضع الجميع لنفس الفحص الدقيق، أصحاب الرؤوس الفضية من الكهول، والشباب النشيط، الخادمات والمتزوجات، خضعوا جميعا لنفس الفحص الخشن الذي خضعت له الحيوانات، في هذه اللحظة رأيت بوضوح أكثر من أي وقت، الآثار المدمرة للرق على كل من العبد ومالكه.

بعد التقييم جاء التقسيم، وليس لدي اللغة التي أعبر بها عن التوتر الفائق، أو القلق العميق، الذي أحسسناه نحن العبيد البائسون خلال ذلك الوقت، مصيرنا في الحياة يُقرر أمامنا الآن، وليس لنا في هذا القرار أكثر من صوت البهائم التي بينها تم ترتيبنا، كانت كلمة واحدة من الرجال البيض كافية- ضد كل رغباتنا، صلواتنا، وتوسلاتنا- لتودي إلى الأبد بأعز الأصدقاء، وأحب الأقارب، وأقوى الروابط التي عرفها بنو الإنسان.

وبالإضافة إلى آلام الانفعال، كان هناك الرعب المهول من السقوط في يد السيد أندرو، لقد كان معروفا لنا جميعا بأنه

البائس القاسى، السكير الذي بسوء إدارته ورعونتها، وتهتكه الفاسق، أضاع جزءًا كبيرا من أملاك والده، أحسسنا جميعا بأننا سنباع في الحال إلى تجار ولاية جورجيا إذا وقعنا في يده، هذا هو المصير المحتوم لكل من يقع في يده، وكنا جميعا في أقصي رعب وخوف.

لقد عانيت من القلق أكثر من معظم رفاقي العبيد، ذلك أني عرفت ما هي المعاملة الطيبة، بينما هم لم يعرفوا شيئا عن الطيبة، لقد شاهدوا قليلا، وربما لا شيء من العالم، لقد كانوا حقًا رجال ونساء الحزن العميق الذين اكتسوا بالألم، ظهورهم متشابهة من الجلد الدموي بينما نادرًا ما جُلِدتُ في بالتيمور، قلّ من العبيد من يستطيع التفاخر بسيد أطيب من سيدي أو سيدة أطيب من سيدتي، لذلك كانت فكرة الانتقال من أيديهم إلى يدي السيد أندرو- الرجل الذي منذ أيام قليلة أظهر لي بينة على طبعه الدموي حين أمسك بأخي الصغير من عنقه، وألقى به فوق الأرض، ثم ضرب بكعب حذائه رأسه، حتى تفجر الدم من أنف أخي وأذنيه- أقول إن فكرة الانتقال هذه، كانت تقلقني على مصيري، لقد استدار لي السيد أندرو بعد أن أنجز هجومه الوحشي على أخي وقال إن هذه هي الطريقة التي سيعاملني بها يوما ما، وكان يقصد اليوم الذي أصبح فيه ملكا له، لكن شكرًا للعناية الإلهية لقد أصبحت من نصيب مسز لوكريشيا، وأرسلت على الفور إلى بالتيمور لأعيش من جديد بين عائلة السيد هوف، كانت

سعادتهم بعودتي مساوية لأسفهم عند رحيلي، وكان يوما سارًا لي، لقد نجوت مما هو أسوأ من مخالب الأسد، ولقد غبت عن بالتيمور بسبب عملية التقييم هذه نحو شهر تقريبًا، لكنه بدا لي ستة أشهر.

حالا بعد عودتي ماتت سيدتي لوكريشيا مخلفة زوجها وطفلة هي أماندا، وسرعان مالحق بها السيد أندرو، الآن أصبحت كل تركة سيدي القديم شاملة العبيد في أيدي الغرباء الذين لم يكن لديهم شيء يفعلونه لتجميعها، لم يعطوا الحرية لعبد واحد، ظل الجميع عبيدًا من الكبار والصغار، وإذا كان هناك في خبرتي شي يساعد أكثر من غيره في تعمق اعتقادي بالهوية الجهنمية للرق، وليملأني بالبغض الذي لا يمكن التعبير عنه لملاك العبيد، فقد كان هذا الشيء هو جحودهم المبدئي لجدتي العجوز البائسة، لقد خدمت سيدي القديم بإخلاص منذ شبابها إلى مشيبها، كانت مصدر كل ثروته، ملأت ضيعته بالعبيد وأصبحت جدة عظيمة لأطفال العبيد، بل لقد هدهدته في طفولته ورعته وخدمته طوال الحياة، وعند موته مسحت عن رموشه برودة الموت، وأغلقت عينيه إلى الأبد، رغم ذلك تُركت عبدة، عبدة إلى الأبد في أيدي الغرباء، وفي أيديهم رأت أطفالها وأحفادها وأحفاد أحفادها يقسّمون مثل الأغنام دون فرصة لهم في تقرير مصائرهم، وحتى يصل الغرباء إلى قمة جحودهم البشع، وبربريتهم الوحشية، وجدوا في جدتي قيمة قليلة، إنها الآن عجوز جدًا، لقد رعت حياة سيدي القديم وكل

أطفاله، ورأت بدايتهم ونهايتهم جميعا، على مظهرها تبدو آلام الشيخوخة وعجز أطرافها، وهكذا نقلوها إلى الغابات حيث بنوا لها كوخا صغيرا، وتركوها وحدها تواجه الموت، لو كانت جدتي العجوز البائسة حية الآن، لابد أنها في وحدة قاسية تتذكر وتتعذب على فقد الأطفال وفقد الأحفاد، وفقد أحفاد الأحفاد، الذين بلغة «ويتييه»[1] شاعر العبيد:

«ذهبوا، ذهبوا، بيعوا وذهبوا
إلى مستنقع الأرز البارد الموحش
حيث جلد العبيد يصفر بلا توقف
وحيث تلدغ الحشرة المؤذية
وحيث يبذر شيطان الحمى السم
مع قطرات الندى الساقط
وحيث يتوهج شعاع شمس المريض
عبر الهواء الحار والمشبع بالضباب
ذهبوا، ذهبوا، بيعوا وذهبوا
إلي مستنقع الأرز البارد الموحش من
تلال فرجينيا وأنهارها
واحسرتاه على بناتي المسروقات!».

مكتبة
t.me/soramnqraa

خراب هو البيت، والأطفال، الأطفال الأبرياء الذين غنوا ورقصوا في حضورها ذهبوا، إنها تتحسس طريقها في ظلام

1- ويتييه شاعر أميركي أبيض عاش مابين عامي 1807-1892 وهو ينتمي إلى جماعة الكويكرز، وهي جماعة دينية ممتدة حتى الآن لها مواقف إيجابية من قضايا الحرية.

العمر من أجل شربة ماء، وبدلا من أصوات أطفالها، تسمع طول النهار صياح الطير البرى، وفي الليل نعيق البوم الوحشي، كل شيء مظلم، والقبر عند الباب، والآن، الآن حيث تنهار تحت تأثير آلام وضعف الشيخوخة، حين تتعلق الرأس بالأقدام، وتتقابل بداية ونهاية الوجود الإنساني، ويلتحم العجز وتقدم العمر معا، في هذا الوقت الذي هو أكثر الأوقات احتياجا، وقت الحدب والتعاطف الذي يمكن للأطفال فقط تقديمهما لأمهم الزائلة، فإن جدتي العجوز البائسة- الأم المكرسة دائما لاثني عشر طفلا- تترك وحيدة في كوخ صغير أمام قليل من بقايا نار خامدة، إنها تقف، تجلس، تترنح، تسقط، تتحشرج، تموت، ولا أحد من أطفالها أو أحفادها موجود ليمسح عن رموشها المتشنجة برود الموت، أو يواري بين العشب بقاياها، ألا يرى الرب الحق هذه الأشياء؟!

بعد نحو عامين من موت مسز لوكريشا تزوج السيد توماس زوجته الثانية، كان اسمها رونيا هاملتون، وهي أكبر بنات مستر وليام هاملتون، يعيش سيدي الآن في مزرعة سانت ميشيل، وبعد زواجه بقليل وقع سوء تفاهم بينه وبين السيد هوف، ولمعاقبة أخيه أخذني منه لأعيش معه في مزرعة سانت ميشيل، هنا عانيت ألما آخر للانفصال، لكنه على كل حال لم يكن في قسوة خوفي أول مرة عند تقسيم التركة، ذلك أنه خلال هذا الوقت جرى تغير كبير في السيد هوف وزوجته التي كانت طيبة وعطوفة، لقد ترك البراندي تأثيره عليه كما

طبعت العبودية أثرها المدمر على شخصية زوجته، وهذا ما جعلني أعتقد أن لديّ القليل لأخسره بفراقهما، الحقيقة لم يكن انجذابي لهما بقدر ما كان للأولاد في بالتيمور الذين تلقيت دروسًا عديدة منهم وما زلت، وكانت فكرة تركهم مؤلمة حقًا، أصبحت أعيش بعد انتقالي دون أمل في السماح لي بالعودة إلى بالتيمور، لقد قال السيد توماس إنه لن يتركني أعود أبدًا، وأن الحاجز الذي صار بينه وبين أخيه لا يمكن عبوره، حينئذ شعرت بالأسف لأنني لم أحاول أن أنفذ قراري بالهرب، كانت فرصة النجاح في المدينة أعظم منها في الريف.

لقد أبحرت من بالتيمور إلى سانت ميشيل على ظهر الباخرة آمندا، التي كان يقودها الكابتن إدوارد دودسون، وفي الطريق أبديت اهتماما خاصا بالاتجاه الذي تأخذه البواخر في السفر إلى فيلادفيا، وجدت أنهم بدلا من الذهاب جنوبا للوصول إلى نورث بونيت، يدفعون البواخر في اتجاه الشمال الشرقي، حفظت هذه المعلومة ذات الأهمية العظمى، لقد استيقظ تصميمي على الهرب مرة ثانية وقررت انتظار الفرصة المناسبة فقط لأغتنمها.

*****

- 9 -

بلغت الآن مرحلة من حياتي أستطيع فيها إدراك التواريخ، لقد غادرت بالتيمور للعيش مع السيد توماس أولد في سانت ميشيل، في شهر مارس من عام ١٨٣٢، أكثر من سبع سنوات مضت الآن على حياتي الأولى معه بين عائلة سيدي القديم في ضيعة الكولونيل اللويد.

الآن، نحن تقريبًا غريبان تماما بالنسبة لبعضنا، لقد أصبح بالنسبة لي سيدًا جديدًا، كما أصبحت بالنسبة له عبدًا جديدًا أيضا، أجهل أنا مزاجه وميوله، وهو كذلك يجهل مزاجي وميولي، لكن ما كاد وقت قصير يمضي حتى صار كلانا عارفا بالآخر، وعرفت أيضا زوجته معرفتي لنفسي، ولقد كانا، هو وزوجته، متطابقين تماما في الخسة والقسوة.

الآن، بعد فترة تزيد عن سبع سنوات، أصبحت أحس لأول مرة بالجوع المؤلم، وهو ما لم أختبره من قبل منذ غادرت ضيعة الكولونيل اللويد، أصبح قاسيا على نفسي أن أنظر خلفي فلا أرى في ماضيّ أية فترة وجدت فيها كفايتي من المتعة، وأصبح أكثر صعوبة أن أعيش مع السيد توماس أولد بعد حياتي بين عائلة السيد هوف حيث كنت دائما أجد ما يكفي من الطعام الطيب.

لقد قلت إن السيد توماس كان رجلا خسيسا، ولكن عدم إعطاء العبد طعامًا كافيًا كان يعتبر أكثر الأفعال خسة بين مالكي العبيد.

القاعدة هي أنه ليس مهما خشونة الطعام، لكن دعه كافيا، كانت هذه النظرية، وكان هذا أيضا هو العمل السائد في المنطقة التي أتيت منها بولاية ميريلاند، رغم وجود استثناءات عديدة، لكن هنا لم يعطنا السيد توماس ما يكفي، لا من الطعام الجيد، ولا من الطعام الخشن.

كان هناك أربعة عبيد في المطبخ، أختي ليزا، خالتي بريسيليا، هيني، وأنا، وكان يقدم إلينا أقل من نصف بُشل من الذرة في الأسبوع، وأقل القليل من اللحوم والخضر، لم يكن ذلك كافيا للاستمرار في الحياة، لذلك حاولنا الحصول على ما يقيم حياتنا من جيراننا، وكان ذلك بالشحاذة أوسرقة ما تطوله اليد وقت الحاجة، أصبح كلاهما- الشحاذة والسرقة- مشروعًا، كم من المرات كنا نحن المخلوقات البائسة نكاد نحتضر من فرط الجوع، ويحدث هذا بينما يستقر الطعام مكتوما بوفرة في المنزل الآمن ذي المداخن، لقد كانت سيدتنا التقية تعلم بالحقيقة، ورغم ذلك كان بمستطاعها السجود كل صباح، والصلاة للرب أن يبارك لهم في الغلال والسلال.

كل مالكي العبيد أهل سوء، نادرًا ما قابلنا واحدًا يحمل صفة تستحق الاحترام، ولم يكن سيدي مختلفًا، إذ لم أعرف له عملا واحدا يدل على النبل، السمة القائدة لشخصيته هي

الخسة، وكل سمات شخصيته الأخرى لها علاقة بهذه السمة، كان خسيسا ومثل كل الأخساء، يفتقد القدرة على الكشف عن خسته، إنه لم يولد كمالك للعبيد، بل كان فقيرًا يقود سفينة في الخليج، وأصبح مالكا لكل عبيده بعد زواجه من زوجة غنية، ومن بين كل ملاك العبيد كان أسوأهم.

كان قاسيا لكنه جبان، يأمر ولكن مهتزًا، ولكي يقوي من نفسه أمامنا كان يبدو ثابتا في وقت متزعزعا في آخر، حينا يحدثنا بعزيمة نابليون وغضب الشيطان، وحينا يبدو كالمخطئ الذي ضل طريقه، تحسبه خطأ أسدًا لكنه مجرد أذنين! في كل الأشياء النبيلة التي حاولها كان بادي الخسة، أنفاسه، كلماته، وأفعاله، يجاهد ليجعلها أنفاسَ وكلماتِ وأفعالَ مالك عبيد أصلي، لكنها وهي المنتحلة، تبدو غليظة سمجة بدرجة كافية، كان لديه كل نزوع طبيعي إلى الخداع ولكن يفتقد إلى القوة، ولأنه لا يمتلك في دخيلة نفسه، أي أساس للقوة، كان مضطرًا لتقليد غيره، وهكذا كان ضحية للتقلب الدائم، وموضوعا للاحتقار حتى بين عبيده، كان شيئًا جديدًا لم يستعد له أن يعيش أبهة امتلاك العبيد الخاضعين، كان بحق مالك عبيد دون القدرة على ذلك، لقد كان عاجزًا عن إدارة العبيد سواء بالقوة أو بالتخويف أو بالاحتيال، لذلك نادرًا ما ناديناه بـ«السيد»، كنا نناديه بـ«كابتن أولد»، وكان من الصعب أن يحظى بلقب بيننا، ولا أشك في أن ذلك كانت له علاقة كبيرة بغيظه وتبرمه، وأن عدم احترامنا له كان يربكه بشكل

كبير، لقد كان يرغب حقًا في أن نناديه بالسيد لكن ينقصه الحزم اللازم ليأمرنا بأن نفعل ذلك، ولقد اعتادت زوجته أن تحتج على مناداتنا له بالكابتن، لكن دون جدوى.

في أغسطس عام ١٨٣٢م حضر سيدي لقاء دينيا على شاطئ الخليج في مقاطعة تالبوت، تعلقت بأمل ضعيف في أن اهتداءه إلى الإيمان قد يقوده إلى عتق عبيده، وإذا لم يفعل ذلك فلا بد ستقوده الهداية إلى أن يكون أكثر خيرًا وإنسانية، لكن خاب أملي في الناحيتين، ذلك اللقاء لم يجعله إنسانيا مع عبيده، ولا جعله يعتقهم، وإذا كان من أثر لذلك على شخصيته، فقد كان العكس، إذ صار أكثر قسوة وكراهية، وهكذا صار بعد الهداية أسوأ مما كان قبلها، كان قبل الهداية يعول على تسّفُل أخلاقه ليستره ويقويه في أفعاله البربرية، بعد الهداية وجد دعما ومسوغا دينيا لقسوته كمالك عبيد.

لقد كرس نفسه لأعظم المظاهر الدينية، أصبح منزله منزلا للصلاة، يصلي في الصبح والظهيرة والمساء، وسرعان ما تميز بين الناس وأصبح إماما وواعظا، وكرس نفسه لخدمة الكنيسة من أجل هداية الأرواح الضالة، صار بيته لقاء للوعاظ الذين يسعدون بالحضور إليه، وبينما كان يجوعنا كان يحشوهم بالطعام، أصبح ثلاثة أو أربعة من الوعاظ يترددون عليه معا، وكان الذين يترددون بشكل دائم يحملون أسماء مستر ستوركس، مستر إيورى، مستر همفرى، وميستر هيكي، رأيت أيضًا بينهم مستر جورج كوكمان.

كنا نحن العبيد نحب مستر كوكمان، ونعتقد أنه رجل خير، وأنه هو الذي حث مستر صامويل هاريسون، مالك العبيد الغنى، على عتق عبيده، كان لدينا درجات مختلفة من الانطباع بأنه يعمل من أجل تحرير كل العبيد، وحين كان يحضر إلى المنزل تتم دعوتنا إلى الصلاة، بينما لا تتم دعوتنا في كل الأحيان حين يأتي الآخرون، لقد كنا ننتظر مستر كوكمان أكثر من غيره، ولم يكن يصل بيننا دون أن يفشي بعاطفته نحونا، وبسذاجتنا الطبيعية، كانت لدينا الفطنة لنرى هذه العاطفة.

في الوقت الذي عشت فيه مع سيدي في مزرعة سانت ميشيل اقترح شاب أبيض، هو مستر ويلسون أن يذهب بعض العبيد إلى درس الأحد بالكنيسة لتعلم قراءة العهد الجديد، ذهبنا ثلاث مرات فقط، وفي الأخيرة منها طردنا، هاجمنا كل من مستر فيربانكس ومستر ويست الواعظان بالكنيسة، واشترك معهم الكثيرون من الحاضرين، وضربونا بالهروات والقذائف، ونهونا عن الحضور مرة ثانية، وكانت هذه هي النهاية الأليمة والسريعة لمدرسة أحدنا الصغيرة في البلدة التقية بسانت ميشيل، لقد قلت إن سيدي قد وجد مسوّغا دينيا لقسوته، ومثالا على ذلك سأسوق واحدة من كثير من الحقائق التي تبرهن صحة هذا الاتهام، لقد رأيته يقيد فتاة عرجاء ويجلدها بالسوط الثقيل على كتفيها العاريتين حتى نزف دمها الأحمر الساخن، وتبريرًا لفعلته الدموية استشهد

بهذه الفقرة من الكتاب المقدس: «سوف يقاسي الجَلد كثيراً ذلك الذي يعرف إرادة سيده ولا ينصاع لها»، وترك سيدي المرأة النازفة مقيدة في هذه الحالة المرعبة لخمس ساعات، لقد كان يجلدها في الصباح الباكر، وقبل الإفطار، ثم يتركها ويذهب إلى مستودع الغلال، وحين يعود في الظهيرة يجلدها من جديد ممزقا لحمها في كل مكان يصل إليه سوطه الحاد، إن سّر قوة سيدي إزاء هيني، يكمن في حقيقة أنها تقريبًا عاجزة، لقد سقطت وهي طفلة في النار فاحترقت بشكل مرعب، احترقت يداها إلى درجة أنها لم تستطع استعمالها فيما بعد، كانت تستطيع القيام بأعمال صغيرة ولكن بمشقة بالغة، ومن ثم كانت بالنسبة لسيدي شيئا مكلفًا، ولأنه رجل خسيس كانت محل إساءة دائمة منه، كانت لديه رغبة قوية في التخلص من وجود هذه الفتاة البائسة، أرسلها مرة إلى أخته التي رأت فيها هدية فقيرة فلم تمل إلى الاحتفاظ بها، وأخيراً فإن سيدى- المحب للخير، وبنفس كلماته تركها تهيم لتعني بنفسها، هنا رجل حديث الهداية يتمسح بالعذراء ويترك في نفس الوقت طفلتها العاجزة تقاسي الجوع والموت، لقد كان السيد توماس واحدًا من كثير من ملاك العبيد التقاة الذين يملكون العبيد بهدف التصدق بالعناية بهم!

لقد كنت وسيدي مختلفين كثيراً، وجدني غير مناسب لغرضه، وقال إن حياتي في المدينة أتلفتني وخربتني تماما، وجعلتني مناسبًا لكل ماهو شر، وكان أحد أخطائي الكبرى أنني أجعل

حصانه يهرب إلى مزرعة حميه التي تبعد بنحو خمسة أميال من مزرعة سانت ميشيل، ولم يعرف أن سبب هذا القصور من ناحيتي هو رغبتي في الحصول على شيء من الطعام، لقد كان على أن أذهب في أثر الفرس، وهناك، فإن السيد وليام هاملتون- حما سيدي- يقدم دائمًا طعامًا كافيا لعبيده، ولم أكن أغادر مزرعته جائعًا قط، ولم أكن أضع العودة بسرعة في اعتباري، لقد قال السيد توماس في النهاية إنه لن يسمح بأن يتكرر هذا الخطأ، وعشت معه بعد ذلك تسعة أشهر جلدني خلالها بقسوة أكثر من مرة، وفي كل مرة لم يكن هناك سبب هام يدعو للجلد، ثم قرر أن يطردني من المزرعة لترويضي كما قال، ولهذا الهدف وضعني نحو عام في خدمة رجل يدعى إدوارد كوفاي.

كان مستر كوفاي رجلا فقيرًا يستأجر مزرعته، ويستأجر المكان الذي يعيش فيه، والأيدي التي تعمل عنده، لقد أكتسب مستر كوفاي سمعة كبيرة كمروض للعبيد الصغار، وكانت هذه السمعة بذاتها ذات قيمة ضخمة بالنسبة له، لقد مكنته من ملء مزرعته بالعبيد بأقل التكاليف، لقد أمن بعض ملاك العبيد بأنه ليس من الخسارة الكبيرة أن يقدموا عبيدهم لمستر كوفاي لمدة عام لتدريبهم على ما سيضطلعون به من أعمال دون أن يدفع شيئا لهم، وهكذا، وبسبب سمعته فقط، كان مستر كوفاي يحصل على الأيدي العاملة بسهولة شديدة، ولأن مستر كوفاي عُرف أيضا كرجل

ديـن ورع، وعضـو في الكنيسـة الميثوديـة، فقـد أضـاف هـذا وزنـا لسـمعته كمـروض للزنـوج.

لقـد عرفـت كل هـذه الحقائـق عـن طريـق شـاب سـبق لـه العيـش هنـاك، ورغـم ذلـك اعتـبرت التغيـير شـيئًا سـارًا لأننـي تأكـدت مـن إمكانيـة حصـولي عـلى طعـام كاف لـدى مسـتر كوفـاى، ولم يكـن ذلـك بالـشيء الهـين بالنسـبة لشـخص جائـع.

*****

- 10 -

تركت منزل السيد توماس وذهبت للعيش مع مستر كوفاي في أول يناير عام ١٨٣٣م، أصبحت- ولأول مرة في حياتى- عامًلا في الحقول، وفي عملي الجديد وجدت نفسي أكثر ارتباكا من قروي وجد نفسه فجأة في مدينة كبيرة، وبعد أسبوع واحد من وصولي، جلدني مستر كوفاي بقسوة شديدة ممزقا ظهري منزفا دمي، محدثا ندوبًا في لحمي وحفرًا تكفي كل منها لإخفاء أصبعي الصغير، وكانت تفاصيل ذلك كالآتي:

أرسلني مستر كوفاي- في الصباح الباكر جدًا لأحد أيام يناير قارسة البرد- إلى الغابة لآتي بحمل من الحطب، أعطاني عربة صغيرة يجرها ثوران أحدهما غير ذلول، هكذا أخبرني وهو يربط طرف الحبل الطويل حول قرني الثور الذلول، ويعطيني الطرف الثاني، قال لي أن لا أنسى أن أمسك الحبل جيدًا إذا ما أسرع الثوران في الجري، لم يكن قد سبق لي أن سقت ثيرانا من قبل، ولذلك كنت مرتبكًا جدا، وبرغم ذلك نجحت في الوصول إلى حافة الغابة بسهولة، لكني واجهت دغلا متشابكا من الأشجار مما أفزع الثورين فانتفضا دافعين بالعربة في اتجاه مضاد ثم جعلا يركضان ويدوسان فوق بقايا الأشجار

في أكثر الأماكن وعورة، وفي كل لحظة توقعت أن يتهشم رأسي، ظل الحال على ذلك لمسافة طويلة انقلبت فيها العربة في النهاية واصطدمت بقوة بشجرة ضخمة، وقفز الثوران إلى دغل كثيف، كيف نجوت من الموت؟ لا أدري، وجدت نفسي وحيدًا تماما في غابة كثيفة في مكان لم آلفه، وقد انقلبت عربتي وتحطمت، وتورطت ثيراني بين الأشجار الصغيرة المتشابكة ولا أحد يساعدني، لكن بعد جهد خارق نجحت في إقامة العربة، وتخليص الثورين، وإعادة ربطهما إليها، وبدأت مع فريقي هذا في السير إلى المكان الذي كنت أقطع فيه الأشجار أمس، حملت عربتي بحمل ثقيل معتقدا أني بهذه الطريقة سأكبح الثورين، وأخذت طريقي إلى البيت، مضى عليّ نصف يوم، حتى وصلت أخيرًا إلى بوابة الخروج من الغابة سليما، وأصبحت بعيدًا عن الخطر، أوقفت الثورين لأفتح البوابة، وبينما أفعل ذلك، وقبل أن أمسك بحبل الثور، هاج الثوران من جديد، واندفعا نحو البوابة فسقطتْ، وتحطمتْ تحت عجلات العربة التي كادت أيضا أن تحطمني وأنا محشور بينها وبين مصراع البوابة، وهكذا مرتين في يوم قصير نجوت من الموت بالصدفة المحضة.

بعد عودتي إلى المزرعة أخبرت مستر كوفاي بما جرى، وكيف حدث، أمرني بالعودة إلى الغابة فورًا، فعلت وجاء في أثري، وما كدت أدخل إلى الغابة حتى أخبرني أن أوقف عربتي لأنه سيعلمني كيف أضيع الوقت وأكسر البوابات، ثم اتجه إلى

شجرة صمغ ضخمة وقطع بالبلطة ثلاثة أفرع جعل يشذبها بسكينة ثم أمرني أن أخلع ثيابي، لم أستجب له، أعاد الأمر فلم أستجب ولم أتحرك، عند ذلك اندفع نحوي بشراسة نمر ومزق ثيابي وجلدني حتى تمزقت فروع الشجرة، وتمزق قبلها لحمي بوحشية ظلت آثارها باقية لفترة طويلة، كانت هذه هي المرة الأولى التي يجلدني فيها وقد تكرر ذلك بطريقة متشابهة، ولأسباب متشابه أيضًا.

لقد عشت عاما مع مستر كوفاي نادرًا ما مر أسبوع خلال الأشهر الستة الأولى منه دون أن يجلدني، ونادرا ما شفيت من الآلام في ظهري، كان ارتباكي دائما هو سبب جلده لي، لقد كنا نعمل بأقصى درجات المشقة، نستيقظ قبل بزوغ الشمس بكثير، نطعم الخيل، ونندفع مع بداية النهار إلى الحقل نحرث ونعزق، لقد كان مستر كوفاي يعطينا ما يكفي حقا من الطعام، لكن نادرًا ما كنا نجد الوقت لنأكل، لم يسمح لنا بأكثر من خمس دقائق لذلك، نظل في الحقل منذ الصباح الباكر حتى تغيب آخر أشعة الشمس، وفي أيام جمع العليقة غالبا ينتصف الليل علينا ونحن نحزم الحزم، ويكون مستر كوفاي معنا دائمًا، إنه ينام بعض الوقت بعد الغداء ثم يخرج منتعشًا جاهزًا لحثنا على العمل بالكلام أو بالسوط.

لقد كان مستر كوفاي أحد ملاك العبيد القلائل الذين يعملون بأيديهم، وكان مجتهدًا في العمل، يُعرف بنفسه ما على كل شخص، كبيرًا كان أم صغيرًا، من واجب، ولم يكن

خداعه ممكنا، فالعمل يجري في غيابه كما في حضوره، إذ إن لديه ملكة أن يجعلنا نشعر بوجوده بيننا دائما، وطريقته في ذلك أن يفاجئنا، فهو نادرًا مايقترب من موقع العمل بشكل مكشوف طالما يستطيع ذلك خِفية، كان هدفه دائما أن يأخذنا بالمفاجأة، ولقد اعتدنا أن نسميه فيما بيننا بالثعبان.

حين يكون في حقل الذرة يأتي زاحفًا على يديه وركبته ثم يظهر مباشرة بالقرب منا ويزعق: «ها،، ها،، ها! اشتغل اشتغل!»، كانت هذه هي طريقته في الهجوم، ومن ثم لم يكن التوقف عن العمل دقيقة واحدة، آمنا، كان مثل لص في الليل يبدو لنا كما لو كان بالقرب منا، تحت كل شجرة، وخلف كل جذع، وفي كل دغلة، ووراء كل نافذة، أحيانا يلوي فرسه كما لو كان متجها إلى المزرعة في سانت ميشيل التي على بعد سبعة أميال، وبعد نصف ساعة نراه قابعا في ركن من السور الخشبي يراقب كل حركة من العبيد، وكي يفعل ذلك يترك فرسه في الغابة، أحيانا يوقظنا ويعطينا تعليمات العمل ويزعم أنه سيقوم برحلة طويلة، ثم يتركنا ويتجه إلى منزله للاستعداد، ثم يعود زاحفا إلى ركن من السور أو خلف شجرة، ويبقي هناك يراقبنا حتى مغيب الشمس، وهكذا كانت قوة مستر كوفاي تكمن في قدرته على الخداع، حياته كلها مكرسة لتخطيط وتنفيذ أكبر الحيل، ولقد واءم بين كل ما يعرفه من علم ودين، وهذا الميل إلى الخداع، لقد بدا مؤمنا بأنه يستطيع أن يخدع الله نفسه، وكان يصلي صلاة

قصيرة في الصباح، وصلاة طويلة في المساء، وكان غريبًا أن تجد من هو أكثر منه تبتلا.

كانت ممارسة العبادة في أسرته تبدأ بالغناء، ولأنه كان صاحب نفس قصير أصبح على أنا أن أرفع صوتي بالترنيم، كان يقرأ ترنيمة ثم يشير إلى أن أعيدها بصوت قوى، وكنت أفعل ذلك في بعض الأوقات، ولكنني- في أوقات أخرى- كنت أرفض، وكان عدم امتثالي هذا يسبب فوضى كبيرة، وكي يظهر أنه مستقل عني يبدأ في الغناء ويتعثر في الترنيم بشكل يجعل صوته نشازا كله.

في هذه الحالة العقلية، كان يصلي بروح أكثر من عادية، هذا الرجل البائس! ذو النزعة الدينية، والناجح في الخداع لدرجة جعلتني على اعتقاد راسخ بأنه كثيرًا ما يخدع نفسه بأنه عابد مخلص للإله الأعظم في الوقت الذي يجبر فيه أمَة له على ارتكاب الزنا.

إن حقيقة هذه المسألة معروفة، فلقد كان مستر كوفاي رجلًا فقيرًا بدأ حياته حديثا كمالك للعبيد، لم يكن في الأصل قادرًا إلا على شراء عبد واحد، وكانت هذه حقيقة صادمة له، لذلك اشترى هذه الأمة للإخصاب كما قال، كان اسمها كارولين، اشتراها من مستر توماس لووي، الذي تبعد مزرعته نحو ستة أميال من مزرعة سانت ميشيل، كانت امرأة لها جسد قوي كبير، في حوالي العشرين من عمرها، أنجبت من قبل طفلا أثبت لمستر كوفاي أنها حقا ما يريده، بعد شرائها

استأجر رجلا متزوجا من مستر صامويل هاريسون ليبقي عنده عاما واحدا، واعتاد أن يجعل هذا الرجل ينام كل ليلة مع كارولين! وكانت النتيجة أن ولدت المرأة التعسة، لقد كان من دواعي سروره وسرور زوجته أنهما إذا لم يفعلا شيئا طيبا جدا لكارولين إبان حملها، لم يفعلا أيضا شيئا سيئا جدا لها! واعتبرا الطفل شيئا يضاف إلى ثروتهما.

أعود فأقول أنه إذا كان هناك وقت في حياتي جرعت فيه أكثر من غيره مرارة الرق فقد كانت الستة أشهر الأولى في مقامي مع مستر كوفاي، كنا نعمل في كل الأوقات، ولا جو حار جدا علينا، ولا بارد جدًا حولنا، ولا مطر ولا جليد ولا برد، يصعب علينا العمل فيه، عمل، عمل، عمل، في النهار والليل، أطول الأيام كان هو أقصرها عند مستر كوفاي، وأقصر الليالي كانت أطولها، كنت في البداية لا أتحمل، ولكن عدة أشهر من هذا الحال روضتني، لقد نجح مستر كوفاي في ترويضي، روض جسدي وروحي ونفسي، انكسرت مرونتي الطبيعية، لغتي العقلية، ميلي للقراءة، انطفأت الشرارة المبهجة التي لمعت أمام عيني، انغلق عليَّ ليل العبودية الأسود، أصبحت رجلا تحول إلى دابة!

كان يوم الأحد هو يوم فراغي الوحيد، وكنت أمضيه فيما يشبه ذهول البهائم، بين النوم واليقظة تحت شجرة ضخمة، أحيانا كنت أستيقظ على ضوء من فكرة الحرية يدور في نفسي مصحوبا بأمل باهت يلمع للحظة ثم يختفي، وأسقط

في النوم مرة ثانية أبكي حالى، أحيانا كنت أستَفز لأنهي حياتي وحياة مستر كوفاي لكن يمنعني الأمل والخوف، إن معاناتي في مزرعة مستر كوفاي تبدو لي الآن مثل حلم أكثر مما هي حقيقة واضحة.

كان مكاننا يقوم وسط دغلات قليلة على خليج تشيزابيك الذي كانت واجهته الواسعة دائما بيضاء بأشرعة السفن القادمة والمسافرة إلى كل ركن في الدنيا، وكانت هذه السفن الجميلة، المكسوة بالبياض الناصع لصواريها، المبهرة لعين كل رجل حر، تبدو لي أشباحا من الأكفان ترعبني وتعذبني بالتفكير في حالي البائسة، وكنت كثيرًا- خلال الصمت العميق لأيام الآحاد في موسم الصيف- أقف وحيدًا على الشواطئ العالية التي لا حصر لها من الصواري تتحرك إلى المحيط العظيم، كان هذا المشهد يؤثر فيّ بقوة، يجبر أفكاري على الانطلاق من أسرها، وهنا- دونما أحد معي غير الرب- كنت أفرغ شكوى روحي في طريقي الوعر، وأنا أناجي الأعداد الكبيرة المتحركة من السفن:

لقد غادرتِ مراسيكِ، فأنتِ إذن حرة، أنا هنا مقيد بالسلاسل، أنا عبد! تخطرين بانشراح قبل العاصفة الرقيقة، وأتحرك بحزن قبل الجلد الدموىّ!

أنتِ الملائكة المجنحة للحرية، تلك التي تطير حول العالم، وأنا مقيد في الحديد! آه لو كنت حرًّا! آه لو كنت فوق أحد أسطحك الفخمة، ويحميني شراعك! لكن وا أسفاه، بيني

وبينك سجاسج الماء، فأبحري وأبحري، آه لو أستطيع الإبحار أيضًا، لو أستطيع السباحة، لو أستطيع الطيران! آه لماذا ولدت رجلا يصنعون منه دابة؟!

إن السفينة السعيدة ترحل، تختفي في ظلام المسافات، وأبقى هنا فوق لهيب تل العبودية التي لا تنتهي، آه يا إلهي!، أنقذني! يا إلهي خذني، دعني أكون حرًا! هل هناك حقا أيّ إله؟ لماذا إذن أنا عبد؟

سوف أهرب، لن أتوقف عن ذلك، وسواء فشلت أو نجحت سأحاول، إن لدي حياة واحدة لأخسرها، وقتلي هاربا مثل موتي ساكنا، مائة ميل إلى الشمال وأصبح حرًا، فكر في ذلك جيدًا، هل تفعلها؟ أجل، الله سيساعدني، سأفعلها، لن أعيش وأموت عبدًا، سأخوض البحر، هذا الخليج نفسه سيحملني إلى الحرية، تبحر السفن التجارية في طريق الشمال الشرقي من نورث بوينت، وسأفعل نفس الشيء، وحين أصل إلى رأس الخليج سأدير قاربي إلى الخلف وأستمر عبر ديلاوير إلى بنسلفيا، هناك لن يطالبني أحد بتصريح وأستطيع السفر بلا خوف، إذن فلأدع الفرصة تأتي وأغتنمها، سأنتظر، إنني لست العبد الوحيد في العالم، فلماذا التبرم؟ أستطيع أن أتحمل أكثر مما رأيت، إلى جانب أنني ما زلت صبيا، إن بؤس العبودية هو الذي سيزيد من سعادتي حين أتحرر، وهناك يوم أفضل لا بد قادم.

هكذا اعتدت أن أقلب فكري وأحدث نفسي مندفعا تقريبا

إلى الجنـون في لحظـة، وفي الثانيـة أصالـح نفـسي مـع قسـمتها التعسـة.

لقـد قـررت أن حالتـي كانـت أكـثر سـوءًا خـلال الأشـهر السـتة الأولى لمقامـي في مزرعـة مسـتر كوفـاي، ولقـد قـادت الظـروف إلى تغـير في طريقـة مسـتر كوفـاي في معاملتـي في الأشـهر السـتة التاليـة مـما شـكل مرحلـة مختلفـة في تاريخـي المتواضـع، لقـد رأيـت كيـف يتـم صنـع العبـد مـن الإنسـان، وسـوف تـرى الآن كيـف يتـم صنـع الإنسـان مـن العبـد.

في يـوم مـن أكـثر الأيـام حـرارة لشـهر أغسـطس عـام ١٨٣٣م، اجتمـع كل مـن بيـلي سـميث ووليـام هيوفـس، وإيـلى، وأنـا، في عمليـة طحـن القمـح، كان هيوفـس يبعـد الدقيـق المطحـون عـن المطحنـة، وإيـلي يقودهـا، وسـميث يمونهـا بالقمـح، بينـما أقـوم أنا بنقـل القمـح إليهـم، كان العمـل بسـيطا يتطلـب مـن القـوة أكـثر مـما يتطلـب مـن العقـل، لكنـه كان بالنسـبة لشـخص لم يعتـده يشـكل مشـقة كبـيرة، في حـوالي السـاعة الثالثـة مـن نهـار ذلـك اليـوم سـقطت مغشـيًا عـلى، خذلتنـي قـوتي، وكان هنـاك صـداع عاصـف في رأسي مصحوبـا بـدوار عنيـف وارتعشـت كل أطـرافي.

ولأننـي أدركـت مـا سـيترتب عـلى ذلـك أوقفـت نفـسي متأكـدًا أنه لا يمكـن أن أتوقـف عـن العمـل، وقفـت بأقـصى مـا أسـتطيع مـن جهـد ومشـيت مترنحًـا إلى قـادوس المطحنـة أحمل القمـح، لكنني لم أسـتطع فسـقطت مـن جديـد شـاعرًا بـأني مشـدود مـن أسـفل بثقل ضخـم، توقفـت الطاحونـة بالطبـع، لقـد كان لـكل واحـد مـا يفعلـه

ولم يكن ممكنا أن يعمل أحد عمل الآخر ويستمر في عمله في نفس الوقت، كان مستر كوفاي في منزله على بعد مائة ياردة تقريبا من الساحة التي بها الطاحونة، ولقد غادر المنزل بسرعة حين لم يعد يسمع صوتها وأقبل إلينا، سأل بسرعة عما حدث فأجابه بيلي بأني مريض ولا يوجد أحد ليحمل الحبوب، في ذلك الوقت كنت قد زحفت بعيدا إلى جانب السياج الذي يحيط الساحة أملا أن ينعشني الظل، وسأل مستر كوفاي أين أنا؟ فأشاروا إلى مكاني فأقبل نحوي، بعد أن تطلع برهة في وجهي سألني ما الأمر، أخبرته بقدر ما أستطيع لأني كنت قد فقدت القدرة على الكلام، حينئذ وجه نحوي ركلة متوحشة وأمرني أن أقف، حاولت، لكنني سقطت فوق ظهري، صوب نحوي ركلة أخرى وأمرني من جديد أن أقف، حاولت، ونجحت في الاحتفاظ بقدمي ثابتتين، لكن، حين تقدمت ترنحت من جديد وسقطت، تناول مستر كوفاي قطعة ثقيلة من خشب الجوز وصوب بها ضربة قوية فوق رأسي، فجرحني جرحا بالغا انفجر على أثره الدم، وأمرني مرة ثانية أن أقف، لم أئن أو أصرخ، قررت أن أدعه يفعل أسوأ ما عنده، وفي وقت قصير بعد هذه الضربة أصبح رأسي أفضل، لقد تركني مستر كوفاي أواجه مصيري، وفي هذه اللحظة قررت أن أذهب إلى سيدي أشكو له مستر كوفاي، وأطلب حمايته لي منه، كان على أن أمشي سبعة أميال لأنجز ما عزمت عليه، وكان هذا في ظروفي هذه عملا جنونيا، كنت مُنهك القوى تماما بسبب الركلات والضربات التي تلقيتها أكثر

من صدمة المرض الذي وقعت فيه، ورغم ذلك ترقبت فرصتي، وبينما كان مستر كوفاي يتطلع إلى الجانب الآخر، بدأت السير إلى مزرعة سانت ميشيل، قطعت مسافة معقولة من الطريق المؤدي إلى الغابات حتى اكتشفني كوفاي وجعل يناديني مهددًا، لم أهتم لندائه ولا لتهديده، وأخذت طريقي إلى الغابات بأسرع ما يمكن أن تسمح حالتي المرهقة، فكرت أني لو أخذت الطريق المعتاد سيكتشفني كوفاي بسهولة داخل الغابة، ابتعدت بما يكفي عن الطريق في الوقت الذي احتفظت بمسافة بيني وبينه لا تفقدني إياه، مشيت قليلا ثم خانتني قواي مرة ثانية، سقط ونمت وقتا طويلا، كان الدم لا يزال ينزف من جرح رأسي، فكرت لبعض الوقت أنني سأنزف حتى الموت لكن الدم تسبب في تلبيد شعري فوق الجرح فسدّه، بعد أن تمددت لحوالي ثلاثة أرباع الساعة أوقفت نفسي وبدأت طريقي عبر المستنقعات المليئة بورود الماء، عاري القدمين والرأس، تتمزق في كل خطوة قدماي، قطعت السبعة أميال في حوالي خمس ساعات ووصلت إلى سيدي، كان مظهري يكفي ليؤثر في أي قلب ولو من حديد، كنت مغطى بالدم من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، شعري ملبد بالدم والتراب، قميصي ملطخ بالدم، قدماي وساقاي ممزقة في أكثر من مكان ومغطاة بالأشواك والدم، فكرت أنني شخص أفلت في التو عاريا من وكر للوحوش، وبتواضع توسلت وأنا في هذه الحالة المحزنة إلى سيدي أن يستخدم سلطته لحمايتي، أطلعته على كل الظروف بقدر ما أستطيع، وبدا لي وقد أثر فيه

حديثي ومظهري، لكنه جعل يذرع الأرض جيئة وذهابا ويبحث عما يبرر موقف كوفاي، ويقول إنه يتوقع أنني كنت أستحق ماحدث ثم سألني ما أريد، أخبرته رغبتي في العيش في مكان جديد لأنني لو عدت إلى مستر كوفاي مرة أخرى سأموت لا محالة، لأن كوفاي لن يتوانى عن قتلى، بل لقد أوشك أن يفعل ذلك حقًا، سخر السيد توماس من كلامي وقال إنه يعرف مستر كوفاي جيدًا وإنه رجل طيب، كما أنه (توماس) لا يستطيع نزعي منه، لأنه إذا فعل ذلك سيطالبه مستر كوفاي بأجر العام كله الذي سبق ودفعه له كإيجار عن هذه المدة، وهكذا فعليّ أن أعود من جديد إلى مستر كوفاي ولا يجب أن أزعجه (توماس) بأي قصص أخرى وإلا سوف يعيدني هو بنفسه .

بعد هذا التهديد صوب نحوي ستة من الركلات الثقيلة، ثم قال إني سأبقى في مزرعته الليلة، فالوقت متأخر كثيرًا، لكن على أن أعود إلى مستر كوفاي في الصباح الباكر، وإذا تقاعست سيفعل هو ذلك بي، وهذا يعني أيضا أنه سيجلدني، أمضيت الليل في مزرعة سانت ميشيل، وفي الصباح بدأت طريق العودة، كان ذلك صباح يوم سبت وكنت ممزق الجسد مكسور الفؤاد لم أتناول عشاء في تلك الليلة ولا فطورًا ذلك الصباح، ووصلت لمزرعة كوفاي في حوالي التاسعة صباحًا، وبينما كنت أعبر السور الفاصل بين مزرعة مسز كيمب ومزرعتنا، اندفع مستر كوفاي نحوي بسوطه العريض ليجلدني

مرة أخرى، قبلَ أن يصل إلى نجحت في القفز إلى حقول الذرة، واختبأت بين عيدانها الطويلة، بدا كوفاي غاضبًا جدًا وبحث عني وقتا طويلا، كان سلوكي غير متوقع بالمرة بالنسبة له، وفي النهاية تخلى عن المطاردة معتقدا، فيما أتصور، بأني سأعود إلى البيت حين يعضني الجوع.

أمضيت ذلك اليوم تقريبا بين الأشجار، وكنت بين أن أعود إلى البيت فأجلد حتى الموت أو أبقي بين عيدان الذرة وأجوع حتى الموت، لكني في الليل رأيت ساندي جيكينز، وساندي هذا عبد أعرفه بعض الشيء، وأعرف أنه متزوج من امرأة حرة تعيش على بعد أربعة أميال من مزرعة مستر كوفاي، ولأن اليوم كان السبت فقد كان ساندي في طريقه لزيارتهما، أخبرني- بتدين عظيم- أن على أن أعود إلى مستر كوفاي، لكن قبل عودتي يجب أن أذهب معه إلى مكان في الغابة حيث يوجد جذر شجرة معينة إذا أخذت قطعة منه معي وحملتها دائما في جيبي على الجانب الأيمن، فلها أثر التعويذة، وستجعل من المستحيل على مستر كوفاي أو غيره أن يجلدني.

قال ساندي إنه يحمل قطعة من هذا الجذر منذ أربعة أعوام، وخلالها لم يتلق ضربة قط من أي أحد، ولا يتوقع أن يحدث له ذلك طالما يواظب على حملها، في البداية رفضت الفكرة، ولم أكن ميالا لتنفيذها، لكن ساندي تحدث عن ضرورة ذلك بحماس شديد، وأخبرني بأن هذا الجذر لن يؤذيني إن لم يفدني، وفي النهاية، وحتى أبعث السرور في نفسه، حملت

جزءًا من ذلك الجذر على جانبي الأيمن، وكان ذلك صباح يوم الأحد.

أخذت طريقي إلى البيت، وعند دخولي من بوابة الساحة خرج مستر كوفاي في طريقه إلى المطحنة، تحدث إليّ برقه وأمرني أن أسوق الخنازير عند مستنقع قريب، وتركني آخذا طريقه إلى الكنيسة، لقد جعلني هذا السلوك الفريد من مستر كوفاي أبدأ حقيقة في الاعتقاد بأهمية الجذر الذي أعطاني ساندي إياه، ولولا أن اليوم الأحد لعزوت كل سلوك لمستر كوفاي إلى قوة الجذر، وهكذا كنت في اعتقادي مترددًا.

سار كل شيء بطريقة حسنة حتى صباح الإثنين، في هذا الصباح كانت كل فضائل الجذر محل اختبار، لقد أوقظت قبل شروق الشمس لأنظف وأمشط وأطعم الخيول، أطعت ما صدر لي من أوامر وكنت مسرورا بطاعتي، ولكن بينما كنت أفعل ذلك دخل مستر كوفاي إلى الإسطبل ومعه حبل طويل، كنت في ذلك الوقت أقوم بإنزال بعض الأعشاب من أعلى السقيفة، وهجم على يمسك بساقي محاولا أن يقيدني، لكنني في نفس اللحظة قفزت، فأمسك بقدمي فسقطت على أرض الإسطبل، بدا واثقا أنه قد أمسك بي ويستطيع أن يفعل ما يريد لكنني- ولا أعرف من أين جاءتني هذه الروح- قررت القتال، أمسكت مستر كوفاي من عنقه ونهضت، أمسك بي وأمسكت به، كانت مقاومتي له غير متوقعة تماما حتى أنه بدأ يتراجع، ارتعش مثل ورقة شجر فأعطاني هذا

ثقة، وتشبثت بقوة أكثر بعنقه، فتفصد الدم تحت أصابعي، صرخ مستر كوفاي ينادي هيوفس لينقذه، أقبل هذا وحاول أن يقيد يدي اليمني في الوقت الذي ظل كوفاي ممسكا بي، لكني ركلت هيوفس ركلة قوية مباشرة تحت ضلوعه فتلوى وتركني، لم يكن لهذه الركلة أثر على هيوفس فقط، ولكن على كوفاي أيضًا، لأنه حين رأى هيوفس ينثني متألما خارت شجاعته، وسألني ما إذا كنت سأستمر في المقاومة فقلت سأفعل وليحدث ما يحدث، وأنه استخدمني ستة أشهر مثل دابة، وإني قد صممت على ألايحدث هذا مرة ثانية، حينئذ جاهد ليجرني إلى عصا مركونة خارج الإسطبل قاصدًا الإمساك بها وضربي، لكنني أمسكته بكلتا يدي من ياقته، وألقيته بحركة مفاجئة فوق الأرض، في هذه اللحظة ظهر بيل، لقد ناداه كوفاي من قبل ليساعده، وقف بيل يسأل ماذا عساه يفعل؟

صرخ كوفاي: «أمسكه.. أمسكه»! لكن بيل قال إنه قد استأجره للعمل وليس ليساعد على جلد أحد، ثم تركنا وانصرف، ظللنا حوالي ساعتين نتقاتل وفي النهاية تركني كوفاي، كان متورما من أثر الضرب لدرجة كبيرة، وقال إنه لولا مقاومتي لما جلدني نصف ما فعل، والحقيقة أنه لم يجلدني بالمرة، واعتبرت أنه بلغ نهاية سيئة حيث لم يتسبب في نزف قطرة دم مني بينما جعلته ينزف، وهكذا طوال الستة أشهر الباقية التي أمضيتها معه لم يرفع إصبعه أمامي عند أي

غضب، صار يقول في كل مناسبة إنه لا يريد أن يقيدني مرة أخرى» وأقول أنا لنفسي لا تريد؟! إنك في غنى عن ذلك لأنك ستنال ما هو أسوأ من ذي قبل».

كانت هذه المعركة مع مستر كوفاي هي نقطة التحول في عملي كعبد، لقد أشعلت الرماد القليل الخامد لفكرة الحرية وأحيت في نفسي معنى رجولتي، لقد جعلتني أستعيد الثقة بنفسي، وألهمتني مرة ثانية بالتصميم على الحرية، وكان الإشباع الروحي الذي قدمه لي انتصاري تعويضًا كاملًا عن أي شيء يمكن أن يحدث فيما بعد ولو كان الموت نفسه.

ويستطيع فقط أن يفهم الرضا العميق الذي شعرت به، من تمرد بنفسه وبقوته على الذراع الدموية للعبودية، لقد شعرت بما لم أشعر به من قبل، كان شيئًا مثل البعث من مقبرة العبودية إلى سماء الحرية، لقد نهضت روحي التي تحطمت كثيرا وزال جبني ليحل مكانه التحدي الشجاع، وقررت أنه مهما طال بي الوقت عبدًا في الشكل، فلقد زال- وإلى الأبد- اليوم الذي أكون فيه عبدًا حقيقيًا، لقد تأكد لي- بيقين- أن الرجل الأبيض إذا فلح في جلدي سيفلح أيضا في قتلي، ومنذ ذلك اليوم لم أعد ما كان يسمى بـ«مباح الجلد»، رغم أنني بقيت عبدًا لأربع سنوات تالية، لقد خضت معارك عديدة فيما بعد لكنني لم أجلد قط.

شغلني- لوقت طويل فيما بعد- تساؤل لماذا لم يستدع مستر كوفاي المفتش لينقلني إلى مركز الجلد، وهناك أجلد لجريمة

رفع يدي على رجل أبيض دفاعا عن نفسي! إن التفسير الوحيد الذي أعتقده الآن لا يرضيني، لكن سأقوله كما هو، لقد استفاد مستر كوفاي كثيرا بالسمعة العريضة له كمراقب من الطراز الأول ومروض للزنوج، كان لهذا أهميته الكبيرة بالنسبة له، وكانت سمعته راسخة في هذا المجال، ومن ثم فإن إرسالي وأنا بعد غلام في السادسة عشرة من عمره، إلى مركز الجلد العام، سيفقده كثيراً من سمعته، وهكذا فقط لإنقاذ سمعته فضّل أن يقاسي من عدم عقابي.

انتهت فترة خدمتي الحقيقية لمستر إدوارد كوفاي في يوم عيد الميلاد عام ١٨٣٣م، ولقد سمح لنا أن نمضي الأيام ما بين الميلاد ورأس السنة كإجازة، ووفقا لذلك لم يسند إلينا أي عمل أكثر من إطعام الحيوانات والعناية بها، كان الاعتقاد أن هذا الوقت ملك لنا، وهو من فضل أسيادنا، ومن حقنا أن نستفيد به على هوانا، ففيه يسمح للذين لديهم عائلات بعيدة بزيارتها وإنفاق الأيام الستة بينها، أما الباقون فيمضون وقتهم بطرق مختلفة، الكبار الهادئون من ذوي الوقار منا يشغلون أنفسهم بعمل مقشات من أعواد الذرة، وحصر، وبرادع للخيل، وسلال، آخرون يمضونه في صيد الحيوانات الصغيرة من الأرانب والفئران البرية، لكن القسم الأكبر ينغمس في الألعاب الرياضية والمسابقات الخفيفة مثل لعب الكرة والسباق والعزف على الكمان والرقص، وإظهار القوة في ثني الذراع، وشرب الويسكي، ولقد كان هذا النوع

الأخير من تزجية الوقت الذي يحبه لنا أسيادنا، بل إن العبد الذي يمضي إجازته في عمل ما كان يُنظر إليه على أنه جاحد لمعروف سيده، وكسول لم يتدبر أمره طوال العام بما يكفي حصوله على الويسكي المناسب لعيد الميلاد.

وهكذا أستطيع القول إن هذه الإجازات كانت من أكثر وسائل ملاك العبيد ترويضا للعبيد، بل إذا ما أهمل ملاك العبيد هذه الإجازات ومايجري خلالها فسوف يساهم ذلك في التمرد الفوري للعبيد، لقد استخدمت هذه الاجازات كصمامات أمن لكبح روح التمرد عند الإنسان المستعبَد، والويل لمالك العبيد إذا غامر يوما بعدم السماح بهذه الإجازات أو غيّر ما يتم خلالها من مباذل، في مثل هذه الحالة سوف تنطلق الروح من عقالها مرعبة أكثر من زلزال مدمّر.

كانت الإجازات حلقة من حلقات الخداع الكبير، وجزءًا من السمة اللا إنسانية للعبودية، إنها عادة قامت باحتراف على أساس حب الخير عند ملاك العبيد، لكنني قادر على القول بأنها بنت الأنانية، وإحدى الخدع الكبرى للعبيد، ملاك العبيد لا يعطون عبيدهم هذا الوقت لإراحتهم من العمل الشاق، ولكن لأنهم يعرفون أنه من الخطر حرمانهم منه، فهم- الملاك- يعملون ليمضي عبيدهم تلك الأيام في جو من المساخر ليجعلوهم سعداء بنهايتهم وبدايتهم، ويبدو الأمر كنوع من المواءمة بين العبيد والحرية بإغراقهم في أسفل أعماق التهتك.

إن مالك العبيد- على سبيل المثال- لا يحب أن يرى عبده

يشرب الويسكي بطريقته الخاصة، لكنه يسهل له الطرق المختلفة للسكر، من هذه الطرق إشاعة المراهنة بين العبيد على من يشرب أكبر كمية دون أن يبلغ حد السكر، بهذه الطريقة ينجح الملاك في دفع أكبرعدد من العبيد إلى الشرب حتى النهاية، وهكذا حين يُسأل عبد عن الحرية الفاضلة، فإن المالك المخادع الذي يعلم بجهله، يخدعه بجرعة من التهتك الذميم الممتزجة بخبث باسم الحرية، لقد اعتاد معظمنا على السكر، وكانت النتيجة كما هو مرسوم لها بالضبط، أن اعتقد أكثرنا أن لا فارق كبيراً بين العبودية والحرية، وأن سبب المفاضلة بينهما ضئيل جدًا.

كانت الإجازة تنتهي ونحن نترنح من أثر تهتكنا الفاحش، نأخذ نفسا طويلا ونمضي إلى الحقول، شاعرين بأنه من الأفضل لنا أن ننطلق مما خدعنا سيدنا بأنه الحرية، إلى الوراء حيث تنتظرنا ذراعا العبودية.

لقد كان هذا النوع من المعاملة جزءًا من نظام كامل للخداع ولا إنسانية العبودية كما قلت، إنه يتبنى تنفير العبد من الحرية وتحقيره لها بالسماح له أن يرى فقط فوضاها ويمارس هذه الفوضى، نفس الطريقة يتم تبنيها لجعل العبد يمسك عن السؤال عن أي زيادة في الطعام عما هو مخصص له، إذا يحدث أن ينتهي العبد من حصته من الغذاء قبل موعد استلام الحصة الأخرى فيطلب المزيد منه، حينئذ يغضب سيده، لكنه في نفس الوقت لا يريد له أن يعود بلا طعام، فيعطيه أكثر مما

هو ضرورى، ويجبره على أن يأكله خلال وقت محدد، تكون النتيجة أن يشكو العبد من عدم قدرته على أكل هذه الكمية في هذا الوقت، فيقال له إنه مُنبت لا يرضى بالشبع ولا بالجوع، ويتم جلده لأنه رافض للمتعة، وبالطبع يكره العبد الطعام بعد ذلك.

إن لديّ وفرة من هذه الأمثلة التي تكشف وتوضح المبادئ التي ينتجها ملاك العبيد لخداع عبيدهم، وكلها مستقاة من ملاحظتي الخاصة، لكنني أعتقد أن الحالات التي سقتها كافية، وأن ممارستها شائعة جدًا.

في أول يناير عام ١٨٣٤ تركت مستر كوفاي، وتوجهت للحياة مع مستر ويليام فريلاند الذي كانت مزرعته على مقربة ثلاثة أميال من مزرعة سانت ميشيل، وجدت مستر فريلاند مختلفا تماما عن مستر كوفاي، وبرغم أنه لم يكن غنيًا إلا أنه يمكن أن نسميه الجنتلمان الجنوبي المتعلم، كان مستر كوفاي- كما أوضحت- مروضَ زنوجٍ جيدًا، بينما بدا مستر فريلاند- رغم أنه مالك عبيد- لديه بعض الاعتبار للشرف، وبعض الاهتمام بالعدالة، وبعض الاحترام للإنسانية، ولم يكن مستر كوفاي يمتلك أدنى إحساس بأي من هذه العواطف، لقد كان لمستر فريلاند كثير من مثالب ملاك العبيد، مثل كونه انفعاليًا جدًا ومنرفزًا، لكن من الإنصاف له أن أقول إنه كان متحررًا لدرجة كبيرة من تلك الحيل المنحطة التي كان مستر كوفاي مرتبطا بها، لقد كان فريلاند واضحًا وصريحًا نعرف

دائمًا أين نجده، بينما كان كوفاي أكثر المحتالين خبثا، كذلك كان سيدي الجديد هذا لا يبدي أي ادعاء نحو الدين، وكان هذا في رأيي، ميزة عظيمة حقًا.

إنني أؤكد- بثقة كبيرة- أن ديانة الجنوب هي مجرد غطاء لأكثر الجرائم رعبا، وهي مبرر للبربرية، ومسوغ لأكثر الحيل كراهية، وغطاء مظلم يحمي أكثر أفعال ملاك العبيد وحشية ودمارًا، وحيث كان على أن أستمر بالرزوح تحت نير العبودية، فقد كنت أعتبر أن أعظم رزية تلحق بي هي أن أكون عبدًا لسيد متدين، لأنه من بين كل ملاك العبيد الذين قابلتهم، كان ملاك العبيد المتدينون أسوأهم، وجدتهم دائما الأخبث، والأحقر، والأجبن، والأخس، من كل الآخرين، لقد كان قدري التعس أن أكون، ليس فقط مملوكا لمالك متدين، ولكن أن أعيش في مجتمع لمثل هؤلاء المتدينين، فقريبًا جدًا من مستر فريلاند عاش القسيس دانييل ويدن، وفي نفس الجيرة عاش القسيس ريجبي هوبكنز، كان هذان عضوين وكاهنين في الكنيسة الميثودية للإصلاح، وكان مستر ويدن يمتلك- من بين العبيد- امرأة نسيت اسمها، لكن لا أنسى كيف ظل ظهرها أسبوعًا ينزف جراء سوط هذا المتدين التعس الذي لا يرحم، لقد كان من عادته استئجار العبيد، وكانت حكمته سواء كان عمل العبد جيدًا أم لا فواجب السيد في كل مناسبة أن يجلده ليذكره بسلطانه، كانت هذه نظرية وكان يمارسها.

وكان مستر هوبكينز أكثر سوءًا من مستر ويدن، مفخرته

الرئيسية هي قدرته على إدارة العبيد، وما يميز سلطته هو جلد العبيد دون وجه حق، كان يحافظ دائما على جلد واحد أو اثنين من عبيده صباح كل إثنين، وذلك لإثارة الرعب في الآخرين، وكانت خطته تقوم على الجلد لأهون الأسباب لمنع وقوع أخطاء أكبر، إنه لشيء مدهش للإنسان الذي لم يعتد حياة العبودية، أن يرى بأية سهولة رائعة يستطيع مالك العبيد أن يجد المناسبة لجلد عبيده، إن مجرد نظرة أو كلمة، أو حركة أو خطأ بالصدفة، أو ضعف في القوة تكفي لتكون سببًا لجلد العبيد في أي وقت، هل يبدو على العبد أنه غير راض؟ هناك شيطان في داخله ويجب جلده لطرد الشيطان، هل تكلم العبد بصوت مرتفع حين كلمة سيده؟ حينئذ يكون قد حاز عقلا من مرتبة أعلى ويجب جلده حتى يعاد إلى المرتبة الدنيا، هل نسي العبد أن يخلع قبعته حين اقترب شخص أبيض منه؟ حينئذ يحتاج لتطهيره بالجلد، هل غامر بأن دافع عن فعلته التي تم توبيخه عليها؟ حينئذ يكون مذنبا بالتطاول- وهي إحدى الجرائم العظمي للعبد- هل تجرأ ليقترح طريقة أخرى لعمل الأشياء غير تلك التي أقرها سيده؟ حينئذ يكون مغرورًا بحق، ويضع نفسه في موضع أكبر ولا أقل من جلده جلدًا مبرحًا، هل كسر العزاقة خلال العزيق، أو كسر الفأس خلال تقليب الأرض؟ إنه مهمل ويجب جلده.

ولقد استطاع مستر هوبكنز أن يجد دائما شيئًا من هذا ليبرر استخدامه للسوط، ونادرًا مافشل في اغتنام أية فرصة

لذلك، لم يكن هناك رجل في كل المقاطعة يفضل العبيد الموت عنده مثل هذا القسيس هوبكينز، ورغم ذلك لم يكن هناك رجل في أي مكان حولنا يقيم شعائر الدين وينشط في إحيائها، وأكثر اهتماما بالدرس، وعيد المحبة، والصلاة، ولقاءات الوعظ، أو اكثر تكريسا لها بين أسرته حيث يصلي مبكرًا، ومتأخرًا، وبصوت عالٍ، ولوقت طويل، مثل القسيس مراقب العبيد ريجبي هوبكينز.

ولكن نعود إلى مستر فريلاند وخبرتي في خدمته، لقد كان مثل مستر كوفاي يعطينا طعاما كافيًا، لكنه اختلف عن مستر كوفاي في أنه كان يعطينا وقتا كافيا لنأكله، أنه يعهد إلينا بالعمل الشاق حقًا لكن دائما بين شروق الشمس ومغربها، كان يطلب كثيرا من العمل وجودة الإنجاز لكن يعطينا أدوات جيدة نعمل بها، كانت مزرعته كبيرة لكنه استخدم ما يكفي من الأيدي العاملة التي تستطيع إنجاز عملها بسهولة بالمقارنة مع كثير من جيرانه، كانت معاملتي، خلال خدمتي له، تعد شيئًا سماويا بالقياس بما لاقيته بين يدي مستر إدوارد كوفاي.

كان مستر فريلاند نفسه يمتلك عبدين فقط، هما هنري هاريس وجون هاريس، أما بقية العبيد فقد استأجرهم، وهم ساندي جينكينز- هذا هو نفس الرجل الذي أعطاني الجذر ليمنع عني جلد مستر كوفاي، لقد كان روحا نشطة واعتدنا كثيرًا أن نتحدث عن المعركة التي دارت بيني وبين كوفاي،

وكان دائما يعزو نجاحي فيها إلى الجذر الذي أعطاني إياه، ولقد كانت أيضا هناك خرافة شائعة بين الكثير من العبيد الجهلاء فحواها أن العبد لا يموت، وأن موته نوع من الخداع- وكان العبد الثاني هو هاندي كالدويل، وأنا، كان هنري وجون ذكيين جدًا، حتى أنني بعد فترة قصيرة من وصولي، نجحت في أن أبعث فيهما الرغبة القوية في تعلم القراءة، وسرعان ما انتشرت هذه الرغبة بين الآخرين، فجمعوا بعض الكتب القديمة لتعليم القراءة، وقرروا أن أفعل شيئا مثل مدرسة الآحاد لأعلم أحبائي العبيد، هؤلاء الذين لم يكن أحد منهم يعرف حروف اسمه.

عند وصولي إلى المزرعة، اكتشف بعض عبيد المزارع المجاورة ما كان يدور، وهيأوا أنفسهم لهذه الفرصة الصغيرة لتعلم القراءة، كان مفهوما بين الجميع أن الأمر يجب أن يبقي سرًا بيننا بقدر الإمكان، كان ضروريا أن يظل أسيادنا المتزمتون بمزارع سانت ميشيل جهلاء بحقيقة أنه بدلا عن تمضية أيام الآحاد في ألعاب القوة والملاكمة وشرب الويسكي، فإننا نحاول أن نتعلم كيف نقرأ، إنه لما يسرهم كثيرًا أن يرونا غارقين في تلك الرياضيات النزقة أكثر من أن يرونا نتصرف كمتعلمين ذوي أخلاق وكمخلوقات عاقلة، لقد كان دمي يغلي كلما فكرت في السلوك الدموي لكل من مسز رايت فيربانكس وجاريسون ويست- وكلاهما واعظ- حين اندفعا مع غيرهما نحونا بالعصي والحجارة ومنعونا من درس الأحد في سانت ميشيل، كلهم سموا

أنفسهم مسيحيين! والحواريين المتواضعين للسيد يسوع المسيح، لكنني مرة أخرى أنحرف عن موضوعي.

لقد كانت مدرسة الأحد هذه تتم في بيت رجل ملون حر أتخلى عن ذكر اسمه لأن ذلك قد يؤذيه كثيراً رغم أن جريمة هذه المدرسة ارتكبت منذ عشر سنوات مضت، كان لدي في بعض الأوقات أربعون تلميذًا يرغبون بحماس في التعليم، وكانوا من كل الأعمار، ومن الرجال والنساء، إنني أنظر إلى أيام الآحاد بنوع من السرور لا يمكن وصفه، كانت أيامًا عظيمة لروحي، وكان تعليم أخوتي الأعزاء من العبيد أحلى إنجاز بوركت به دائما.

لقد أحببنا بعضنا البعض، وكان الفراق عند نهاية يوم الأحد شيئا قاسيًا حقًا، إنني اليوم حين أفكر أن هذه الأرواح الغالية قد أغلق عليها في سجن العبودية، تقهرني مشاعري، وأكاد أسأل هل يحكم الله الحق هذا العالم؟ ولماذا يحتفظ بالرعود في يده اليمنى إذا لم تكن للبطش بالظالمين ولإنهاء إفساد المفسدين؟!

إن هذه الأرواح الطيبة لم تكن تأتي إلى مدرسة الأحد لأن ذلك عمل عادي، ولم أكن أعلمهم طمعا بالسمعة الطيبة، بل إن القبض عليهم وجلدهم تسعا وثلاثين جلدة، كان واردًا في كل لحظة، لكنهم أتوا لأنهم رغبوا في التعليم، لقد جاعت عقولهم بسبب قسوة أسيادهم، لقد أغلق عليهم في ظلام العقل، ولقد علمتهم لأنه كان شيئًا مبهجا لنفسي أن أفعل

شيئا يبدو مساهما في تحسين ظروف بني جنسي.

لقد استمرت مدرستي تقريبا طوال العام الذي عشته مع مستر فريلاند، وإلى جانب يوم الأحد، كرست نفسي لثلاث أمسيات في الأسبوع خلال الشتاء لأعلم العبيد في بيوتهم، إنه مما يسعدني كثيرًا أنني أعرف أن عديدًا مما أقبلوا على مدرسة الأحد تعلموا كيف يقرأون، وأن هناك واحدًا على الأقل حر الآن بسبب ما فعلت.

لقد مر العام هادئا، بدا كأنه نصف عام قياسا بالعام الذي سبقه، لقد عبرته دون أن أتلقى ضربة واحدة، وإنني لأشهد بأن مستر فريلاند هو أحسن سيد قابلته حتى أصبحت سيد نفسي، وبسبب السهولة التي عبرت بها هذا العام كنت أيضا مدينا شيئًا ما لمجتمع رفاقي العبيد، لقد كانوا أرواحا نبيلة، إنهم لم يمتلكوا فقط قلوبا محبة، ولكن أيضا شجاعة، لقد ارتبطنا وتداخلنا مع بعضنا وأحببتهم أكثر من أي شيء عرفته حتى ذلك الوقت، يقال أحيانا إننا نحن العبيد لا نحب ولا نثق ببعضنا، وللإجابة على هذا أستطيع القول بأنني لم أحب ولم أثق قط في أي أناس أكثر من رفاقي العبيد، وخاصة أولئك الذين عشت معهم في مزرعة مستر فريلاند، أعتقد أننا كنا مستعدين للموت في سبيل بعضنا البعض، إننا لم نفعل شيئًا له أي أهمية، دون أن نستشير بعضنا ونتبادل الرأي، لم نتحرك فرادى بل رجلا واحدا بأمزجتنا وميولنا أكثر مما كنا بسبب ما نعانيه من مشقات كعبيد.

في نهاية عام ١٨٣٤ استأجرني مستر فريلاند مرة أخرى من سيدي للعام ١٨٣٥، لكنني في هذا الوقت بدأت أرغب- بقوة- في العيش على أرض حرة، بدلا من العيش مع رجل اسمه الأرض الحرة! (فريلاند، وهو اسم سيده، تعني الأرض الحرة) ولم أعد قادرًا على الرضا بالحياة معه أو مع غيره من ملاك العبيد، وبدأت مع بداية العام أعد نفسي لمعركة نهائية عليها يتقرر مصيري، كان اتجاهي قد تحدد إلى الأمام، وكنت أنمو بسرعة في طريق الرجولة، وعام يمر وراء عام وما زلت عبدًا، أثارتني هذه الأفكار، يجب إذن أن أفعل شيئا، لذلك صممت على ألا يمر ١٨٣٥م دون أن يشهد محاولة من جانبي للحصول على حريتي، لكن لم أرغب في إنجاز هذا وحدي.

كان رفاقي العبيد أعزاء على نفسي وكنت مشتاقا لمشاركتهم معي، ولذلك، وبرغم الحذر المطلوب، بدأت مبكرا ألفت أنظارهم ومشاعرهم نحو حالتهم، وأثير عقولهم بالأفكار حول الحرية.

روضت نفسي على إخفاء وسائل وطرق الهروب، بينما اغتنمت كل فرصة مناسبة كي أثيرهم ضد الخدع الكبيرة واللا إنسانية للعبودية.

بدأت بهنري ثم جون ثم الآخرين، وجدت فيهم جميعا قلوبا دافئة وأرواحا نبيلة، كانوا مستعدين للإنصات ومستعدين للعمل حين تقدم إليهم خطة واضحة، وكان هذا هو ما أريده.

قلت إننا لا نكون رجالا إذا خضعنا للاستعباد دون أقل مجهود نبيل من أجل الحرية، وتقابلنا كثيرا، وتشاورنا كثيرا،

وتحدثنا عن آمالنا ومخاوفنا، وأحصينا الصعوبات الحقيقة والمتخيلة التي يجب أن نستعد لملاقاتها، كنا أحيانا نميل للاستسلام ونحاول المواءمة بين أنفسنا وبين قسمتنا البائسة، وأحيانا نبدو أكثر حزما ولا نتردد في التصميم على الهرب، وحين نقترح خطة بيننا يظللنا الانكماش، ويبدو أكثرنا خائفا فطريقنا محفوف بالصعاب العظمى، وحتى إذا نجحنا في بلوغ نهايته فإن حقنا في أن نكون أحرارًا أمر مشكوك فيه، ذلك لأننا نظل معرضين للإعادة إلى العبودية.

لم نر مكانا في هذا الجانب من المحيط يمكن فيه أن نكون أحرارًا، ولم نكن نعرف شيئا عن كندا، كما أن معرفتنا عن الشمال لا تتجاوز نيويورك، التي يعني الذهاب إليها، البقاء إلى الأبد في خوف من الإمكانية المرعبة للإعادة إلى العبودية، حيث ستكون معاملتنا بالتأكيد أسوأ من ذي قبل، لقد كانت الفكرة مخيفة حقا، ولم يكن سهلا التغلب عليها، والقضية برمتها على هذه الصورة.

في كل بوابة نرى مراقبا، وعند كل معبر نرى حارسا، وفوق كل جسر ديدبان، وداخل كل غابة دورية من العسس.

لقد كنا نحاول التغلب على أية صعوبة حقيقية أو متخيلة، نتمسك بالحقائق الطيبة ونتحاشى الحقائق الشريرة، في ناحية تقف العبودية واقعًا جامدًا يحدق مرعبًا إلينا بصورته الملطخة بدم الملايين، وببقائه حتى الآن يتغذى بشراسة على لحمنا، في الناحية الأخرى نعود إلى الوراء، إلى المسافة العميقة تحت

الضوء اللامع لنجمة الشمال، خلف تل وعر أو جبل يغطيه الثلج، حيث تقف الحرية مشكوكا فيها، تشير إلينا أن نأتي ونشاركها، كان هذا في ذاته كافيًا ليجعلنا نتردد، لكننا نسمح لأنفسنا بالتقدم، وما نكاد نقطع الطريق حتى نمتلئ جزعا ففي كلتا الناحيتين نرى الموت المؤكد.

تخيلنا أكثر الأشكال رعبا، جوعًا يجعلنا نأكل لحمنا، موجًا عاتيًا نستسلم أمامه للغرق، وننتهي مهزومين دائما تمزقنا أنياب كلاب المطاردة الدموية وتلدغنا العقارب، وتطاردنا الوحوش البرية، وتعضنا الثعابين السامة، وما نكاد نصل إلى المكان المرغوب فيه بعد سباحة الأنهار ومواجهة الوحوش الضارية والنوم في ظلام الغابات ومقاساة الجوع والعري حتى يتم القبض علينا، نقاوم فيتم صرعنا بالرصاص في نفس المكان!

«فلنتحمل ما نعيشه من أهوال.. بدلاً من الطيران إلى مانجهله».

هذا ما كانت تصل بنا إليه تلك الصور المزعجة، فلقد كنا حين ننتهي إلى يقين ثابت بالهرب نختلف عن باتريك هنري حين صمم على الحرية أو الموت، معنا كانت الحرية أمرًا مشكوكا فيه، والموت هو اليقين إذا وقع الفشل، لكنني من جانبي فضلت الموت على أن أظل أسيرًا للقيود بلا أمل.

تخلى ساندي، أحد أعضائنا، عن الفكرة لكنه ظل يشجعنا، أصبحت جماعتنا تتكون من هنري هاريس وجون هاريس، وهنري بايلي، وتشارلس روبيرتس، وأنا، كان هنري بايلي خالي

ويملكه سيدى، بينما كان تشارلس زوج خالتي ويملكه مستر ويليام هاملتون حمو سيدى.

كانت الخطة التي توصلت إليها هي أن نحصل على قارب خفيف يملكه مستر هاملتون، نتحرك به مساء السبت السابق لإجازة عيد القيامة، ونجدف مباشرة إلى خليج تشيزابيك، وحين نصل إلى رأس الخليج، على مسافة سبعين أو ثمانين ميلا من مكان عيشنا، نترك القارب تتحرك به الأمواج، ونجعل من نجمة الشمال دليلنا حتى نصل إلى ما وراء حدود ميريلاند، لقد فكرنا في طريق البحر حيث إننا فيه نكون أقل عرضه للشك كهاربين، كما كنا نأمل أن يظننا من يرانا صيادين، وأيضا لأننا إذا أخذنا طريق البر سنتعرض لكل أنواع المقاطعة حيث يستطيع كل شخص له وجه أبيض، أو لديه أدنى شك، أن يوقفنا ويتحرى عنا.

قبل أسبوع من الوقت المتفق عليه كتبت عدة تصاريح ليحمل كل منا واحدا منها وبقدر ما أستطيع أن أتذكر كانت صيغتها كالتالى:

«أشهد أنا الموقع أدناه بأنني أعطيت حاملة، خادمى، الحرية الكاملة في الذهاب إلى بالتيمور وقضاء إجازة عيد القيامة ولقد كتبت هذا بخط يدى...

وليام هاملتون ١٨٣٥

بالقرب من مزرعة سانت ميشيل، مقاطعة كاونتي.. ميريلاند»

بالطبع لم نكن ذاهبين إلى بالتيمور، ولكن في صعودنا الخليج سنأخذ اتجاه بالتيمور، ومن ثم كانت التصاريح لحمايتنا فقط بينما نكون في الخليج.

كان وقت الرحيل يقترب، ويزداد قلقنا حدة، إنها حقًا مسألة حياة أو موت بالنسبة لنا، وها هي قوة عزيمتنا على وشك أن تكون موضع اختبار.

في ذلك الوقت نشطت في شرح كل صعوبة، وإزالة كل شك، وإبعاد أي خوف، أحاول إلهام الجميع بالعزم الذي لا غنى عنه للنجاح في مهمتنا، مؤكدًا لهم أننا نحصل على نصف هدفنا في اللحظة التي يبدأ فيها تحركنا، وقلت إننا تحدثنا طويلًا بما يكفي، ويجب أن نستعد للحركة، فإن لم يكن ذلك الآن، فلن يكون أبدًا، وإذا لم ننوِ الحركة الآن فعلينا أن نطوي أذرعنا ونجلس ونتهيأ لأن نكون عبيدًا فقط، لكن أحدا بالفعل لم يكن يهيء نفسه لذلك، فلقد كانوا رجالا ثابتي العزم، وفي لقائنا الأخير عاهدنا أنفسنا بإيمان بالغ بأن نبدأ رحلتنا بحثا عن الحرية في الوقت الذي حددناه، كان هذا اللقاء في منتصف الأسبوع الذي ستشهد نهايته هروبنا، وذهبنا كالمعتاد إلى الحقول المختلفة للعمل، ولكن بصدور تجيش بها الأفكار عن مهمتنا الخطرة، لقد حاولنا أن نخفي مشاعرنا بأكبر ما نستطيع، وأعتقد أننا نجحنا تماما.

بعد انتظار مؤلم أقبل يوم السبت الذي كان على ليله أن يشهد رحيلنا، استقبلت اليوم بفرح طاغ أوقف أي حزن

ممكن، لقد كانت الليلة السابقة ليلة أرق لي، ومن المحتمل أنني كنت أكثر قلقا من الآخرين، فأنا الذي على رأس المهمة كلها، ومسئولية النجاح أو الفشل ملقاة عليّ وحدى، فالمجد في النجاح والدمار في الفشل، وذلك كله في يدي، لقد كانت الساعات الأولى لذلك الصباح شيئًا لم أعهده من قبل وأتمنى ألا تعود مرة ثانية، لقد ذهبنا مبكرًا كالمعتاد إلى الحقول حيث سننثر السماد، وبينما الجميع منغمسون في العمل تحولت إلى ساندي الذي كان قريبا، وقلت هناك خيانة قال: لقد خطرت لي هذه الفكرة في التو، ولم نتحدث أكثر من ذلك إذ لم أعد متأكدا من أي شيء.

صاح النفير وتركنا الحقول إلى البيت لتناول الإفطار، فعلت ذلك لمجرد الحفاظ على الشكل لا لحاجتي لأي طعام، وبالضبط حين دخلت البيت، التفتُّ ونظرت فوجدت عبر البوابة الضيقة أربعة رجال يتبعهم رجلان ملونان، كان الرجال البيض على صهوات خيولهم، والرجلان الملونان يمشيان خلفهم كمربوطين بهم، راقبتهم قليلا حتى دخلوا من بوابة البيت الضيقة، هنا ترجلوا وقيدوا الملونين إلى مصراعي البوابة.

لم أكن متأكدا بعد من سبب ما يحدث، في لحظات قليلة ظهر مستر هاملتون قادما على الطريق بسرعة تدل على ارتباك كبير، أقبل نحو الباب وسأل ما إذا كان مستر وليام موجودا، عرف أنه في مخزن الغلال فاتجه إليه دون تعليق وبسرعة غير عادية، بعد لحظات قليلة عاد هو ومستر

فريلاند، وفي ذلك الوقت وصل ثلاثة مفتشين ترجلوا بسرعة وقيدوا خيولهم ثم قابلوا مستر وليام ومستر هاملتون وهما عائدان من المخزن، وبعد الحديث لفترة مشوا جميعهم ناحية باب المطبخ، لم يكن هناك غيري أنا وجون، كان هنري وساندي في مخزن الغلال، وضع مستر فريلاند رأسه على الباب وناداني قائلا في ارتباك إن رجالا محترمين يرغبون في رؤيتي، اتجهت إليهم وسألت ماذا يريدون، وفي الحال أمسكوا بي، ودون أن يعطوني أيه فرصة قيدوني وضربوني بالسوط على يدي.

أصررت على معرفة ما حدث، فقالوا إنهم علموا أنني بصدد خطة للهرب، وأن على أن أخضع للاستجواب أمام سيدي، فإذا ثبت لهم زيف معلوماتهم لن يؤذونني.

وفي لحظات قليلة نجحوا في تقييد جون ثم تحولوا إلى هنري الذي كان في هذا الوقت عائدًا لتوه، وأمروه أن يضع يديه فوق بعضهما كصليب، فقال في لهجة واثقة تشير إلى استعداده لأي نتائج:

- لن أفعل.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تساءل المفتش توم إبراهام:

- لن تفعل؟!

قال هنري في لهجة قوية:

- لا، لن أفعل.

عند هذا الحد أخرج اثنان من المفتشين مسدسيهما اللامعين وأقسما بالله الذي خلقهما أنه سيفعل وإلا سيقتلانه، ثم

وضع كل منهما إصبعه فوق الزناد ومشيا ناحية هنري وقالا معا إنه إن لم يفعل سيطلقان النار على قلبه الشيطاني، لكن هنري هتف للجميع:

- اقتلوني، اقتلوني، تستطيعون قتلي في الحال، اقتلوني، اقتلوني عليكم اللعنة ولكن لن تقيدوني.

وفي نفس الوقت، وبحركة أسرع من الضوء ضرب المسدسان فطارا بعيدًا لكن تهاوت كل الأيادي فوقه بالضرب وتغلبوا في النهاية على قوته وقيدوه.

حدث أنني خلال المناوشة التي أبديتها لم أعرف كيف أتخلص من تصريحي، والآن دون أن يكتشفني أحد ألقيته إلى النيران، وبعد أن أصبحنا جميعا مقيدين لترحيلنا إلى سجن إيستون، أقبلت بيتسي فريلاند، أم وليام فريلاند، نحو الباب تحمل بسكويتا بين يديها، وقسمته بين هنري وجون ثم خاطبتني قائلة أنت شيطان! أنت شيطان أصفر! أنت الذي غرست الهرب في رأسي هنري وجون، أنت أيها الشيطان الخلاسي طويل الساقين! لا هنري ولا جون كان يفكر في مثل هذا العمل.

لم أجبها بشيء، وبسرعة دُفعنا في اتجاه سانت ميشيل، لقد حدث أن مستر هاملتون اقترح قبل المعركة مع هنري ضرورة البحث عن التصاريح التي فهم أن فريدريك هو الذي كتبها لنفسه وللباقين، لكن في اللحظة التي كان فيها على وشك تنفيذ اقتراحه حدثت المعركة مع هنرى، وجعلته المعركة المثيرة ينسى، أو ربما اعتقد أنه من الخطر في هذه الظروف

البحث عن التصاريح، ومن ثم لم يكن هناك دليل حتى الآن على نيتنا على الهرب.

حين قطعنا نصف الطريق تقريبا إلى سانت ميشيل، وبينما كان المفتشون الذين يقودوننا يتطلعون إلى الأمام، سألني هنري ماذا عليه أن يفعل بتصريحه، قلت له أن يأكله مع البسكويت ولا يعترف بشيء، ثم مرّرنا فيما بيننا جملة لا تعترف بشيء، لا تعترف بشيء وبدا واضحا أنه لن تهتز ثقتنا في بعضنا، لقد قررنا أن ننجح أو نفشل معًا بعد أن حلت بنا المصيبة الكبرى، أصبحنا مستعدين لأي شيء.

كان يجب جرنا ذلك الصباح لخمسة عشر ميلا خلف الجياد ثم وضعنا في سجن إيستون، وحين وصلنا إلى مزرعة سانت ميشيل خضعنا جميعا للتفتيش والاستجواب، فأنكرنا أننا نوينا الهرب، أكدنا على ذلك لنبعد عن أنفسنا التهمة فقط أكثر من أملنا في عدم بيعنا، ذلك لأننا كما قلت كنا مستعدين له، والحقيقة أننا لم نهتم كثيرًا بما سيحدث لنا طالما نكون معا، كان همنا الأكبر هو الانفصال عن بعضنا، لقد خفنا من ذلك أكثر من أي شيء، لقد كان الدليل ضدنا شهادة من شخص واحد لم يفصح سيدي عن اسمه، ولكننا وصلنا إلى قرار ألا تقوم العداوة بيننا بسبب هذا المخبر المجهول.

وصلنا إلى سجن إيستون حيث استلمنا المأمور مستر جوزيف جراهام الذي وضعنا بنفسه في الزنزانات، وضعني وهنري وجون في زنزانة معًا، وتشارلس وهنري بايلي في أخرى، وكانوا

يقصدون بفصلنا هذا إعاقة أي فرصة للاتفاق على شيء.

بعد عشرين دقيقة فقط من دخولنا السجن أقبلت مجموعة من تجار العبيد ووكلاء تجار العبيد ليلقوا نظرة علينا وليتأكدوا مما إذا كنا معروضين للبيع، كانوا مجموعة من المخلوقات التي لم أر مثلها من قبل! شعرت بنفسي محاطا بزبانية جهنم، حزمة من اللصوص لا تزيد في الصورة عن الشيطان، لقد ضحكوا منا وزأروا يخاطبوننا:

أوه.. أولادنا! لقد أمسكنا بكم أليس كذلك؟!

وبعد أن سخروا منا بطرق مختلفة تقدموا واحدا فواحد لفحصنا بقصد تحديد قيمتنا، وبوقاحة سألونا ما إذا كنا نكره أن يكونوا أسيادنا، لم نجبهم وتركناهم يكتشفون ما يريدون، حينئذ لعنونا وأقسموا لنا أنهم يستطيعون إخراج الشياطين من جسومنا في لحظة واحدة إذا وقعنا في أيديهم.

لقد وجدنا السجن أكثر راحة مما توقعنا. حقًا لم يكن الطعام كافيًا ولاجيدًا، ولكن كانت لدينا غرف نظيفة، ومن النافذة كنا نستطيع أن نرى ما يجري في الشارع، وكان هذا أفضل مما لو وضعنا في زنزانة مظلمة رطبة، كما أننا عوملنا معاملة طيبة من السجان، وبعد إجازة عيد القيامة، وعكس كل توقعاتنا أتى مستر هاملتون ومستر فريلاند وأخذوا الجميع ليعيدوهم إلى المزرعة وتركوني وحدي، اعتبرت هذا الفصل بيننا هو النهاية، وسبب ذلك ألما أكثر من أي شيء جرى في حياتي، كنت مستعدا لأي شيء خلا هذا الفصل بيننا، فكرت

أنهما (هاملتون وفريلاند) لا بد تشاورا معا وقررا ذلك حيث وجدا أنني السبب الرئيسي في نية الآخرين على الهرب، وأنه من الصعب أن يعاني البريء ذنب غيره، ولذلك انتهيا إلى إعادة الآخرين وبيعي كتحذير لهم، إن من حق هنري النبيل أن أقول إنه كان كارها لمبارحة السجن بالضبط كما بدا كارها لمبارحة المزرعة والانتقال إلى السجن، لكن كنا قد أدركنا أننا سنفصل حتما إذا تم بيعنا، ومن ثم فإنه حين تمكنوا منه استسلم عائدًا.

الآن تركت أواجه مصيري وحدي داخل جدران السجن الحجرية، لأيام قليلة مضت كنت مفعما بالأمل، وتوقعت النجاة إلى أرض الحرية، والآن يدثرني الظلام ويجعلني أغرق إلى أعماق اليأس.

فكرت أن إمكانية الحرية قد ولت، وبقيت على هذه الحال أسبوعًا حضر في نهايته الكابتن أولد، سيدى، وأدهشني وفاجأني تماما أنه جاء ليأخذني، وفي نيته بعد ذلك أن يرسلني مع رجل طيب من معارفه إلى آلاباما، وانتهى إلى إرسالي مرة أخرى إلى بالتيمور لأعيش من جديد مع أخيه هوف، ولأتعلم حرفة.

وهكذا بعد غياب ثلاث سنوات وشهر واحد، سُمح لي بالعودة إلى بيتي القديم في بالتيمور، لقد خاف سيدي على أن أقتل بعد ماجرى منى، لذا أرسلني إلى مكان بعيد آمن.

بعد أسابيع قليلة من ذهابي إلى بالتيمور أجرني السيد هوف إلى مستر ويليام جاردنر، باني السفن الكبيرة في فيلزبوينت، كان

الاتفاق أن أتعلم جلفطة السفن، وكان المكان غير مريح لهذا العمل، لقد كان مستر جاردنر مشغولا هذا الربيع في بناء سفينتين بحريتين كبيرتين خصيصا للحكومة المكسيكية، وينص الاتفاق على تدشينهما في يوليو من نفس العام، وإذا فشل مستر جاردنر في ذلك وتأخر عن موعده فسيدفع غرامة تكلفه كثيراً، ومن ثم حين بدأت العمل كانت هناك حالة من السعار في الإنجاز، لم يكن هناك وقت لأتعلم شيئا، وحين دخلت إلى الترسانة كانت أوامر مستر جاردنر أن أفعل كل ما يأمرني به النجارون، ولقد جعلني هذا رهن الإشارة والنداء من قبل خمسة وسبعين رجلا كان عليّ أن أعتبرهم جميعا أسيادًا لي، كانت كلمتهم لي قانونا، وصار موقفي أخطر المواقف، في هذا كنت أحتاج إلى أربعة وعشرين ذراعا، كنت أتلقى دستة من النداءات في الدقيقة، كانت ثلاثة أو أربعة أصوات تصل أذني في اللحظة الواحدة فريد، تعال ساعدني على إمالة هذا اللوح هناك.. فريد أحضر هذه الأسطوانة هنا.. فريد اذهب وأحضر لنا زجاجة مياه نقية.. فريد تعال ساعدني في نشر هذا اللوح.. فريد إذهب بسرعة وأحضر الأجنة.. فريد أمسك هذه النهاية.. فريد اذهب بسرعة إلى دكان الحداد واحضر لنا مثقابا جديدًا هيا فريد!، إجرِ أحضر لي أجنة باردة..فريد أشعل النار بأسرع ما يمكن تحت الغراء.. أهلا يازنجي، تعال أدر هذا الجلخ تعال.. تعال! تحرك تحرك! وأمل هذا اللوح من الأمام أقول لك يا أسمر، تنفقئ عيناك، لماذا لا تسخن بعض الزفت.. أهلا

أهلا، ثلاثة أصوات معا- تعال هنا.. اذهب هناك، قف حيث أنت عليك اللعنة إن تحركت.. سوف أدق مخك!

كانت هذه مدرستي لثمانية أشهر، وكان على أن أبقى هناك مدة أطول لولا معركة مرعبة جرت بيني وبين أربعة من الصبية البيض فقدت تقريبا فيها عيني اليسرى، وأصبت في أماكن أخرى من جسدي بشكل مخيف، في الترسانة يعمل نجارو السفن البيض والسود جنبا إلى جنب ولايبدو أن أحدا يرى غضاضة في هذا، الجميع يبدون راضين جدا.

كان الكثيرون من النجارين السود أحرارًا، وبدا كل شيء سائرا في طريقه بلا عقبات، وفجأة أضرب النجارون البيض وقالوا إنهم لن يعملوا مع الأحرار الملونين، وكانت علتهم أنه إذا ما تشجع النجارون السود فحالا ما سيسيطرون على النجارة وسيلقي بالرجال البيض التعساء خارج العمل، لذلك تنادوا فورا إلى وضع حد لهذا، لقد انتهزوا فرصة حاجة مستر جاردنر وأضربوا عن العمل وأقسموا أنهم لن يعودوا حتى يَطرِد النجارين السود.

ورغم أن هذا لا ينسحب على من ناحية الشكل، فلقد وصلني وأصابني في الصميم، فحالما شعر رفاقي البيض من الصبية أنه شيء حقير لهم أن يعملوا معَى! بدأوا يتحدثون عن الزنوج ويقولون إنه يجب قتلنا جميعا، وشجعهم في ذلك العمال الأجراء فبدأوا في التضيق عليّ بأقصي ما يستطيعون، وذلك بمعايرتي في كل مكان وأحيانا بضربي، وكنت أنا ما زلت

أحفظ العهد الذي قطعته على نفسي بعد معركتي مع مستر كوفاي، لذلك دافعت عن نفسي ورددت لهم الضرب دون اعتبار لأي عاقبة، لقد عملت على أن أنفرد بكل منهم، فهذه هي الطريقة الناجحة في مواجهتهم، والتي بها أستطيع جلدهم جميعا واحدًا فواحدًا إذا أردت، لكن في النهاية اتحدوا وأتوني معًا مسلحين بالعصي والأحجار والشوك المعدنية الطويلة وحاصروني، من الأمام سد على الطريق واحد يمسك بنصف قالب من الحجر، ووقف واحد إلى جانبي، فنجح الذي خلفي في ضربي ضربة ثقيلة فوق رأسي بالشوكة المعدنية الطويلة، فأداخني وسقطت على الأرض.

حينئذ جروا جميعا نحوي وانهالوا على ضربا بكل قبضات أيديهم، وتركتهم فوقي بعض الوقت واستجمعت قوتي، وفي لحظة انتفضت من تحتهم مرتفعا على يدي وركبتي، لكن أحدهم صوب إلى ركلة قوية بحذائه الثقيل أصابت عيني اليسري، بدا أن عيني قد انفجرت ورأوها مغلقة متورمة بشكل بشع فتركوني، استطعت الإمساك بالشوكة وملاحقتهم، وهنا تدخل النجارون البيض ومنعوني، فكرت أنه من الأفضل أن أسلم بما حدث، من المستحيل أن أقف وحدي أمام هذا العدد، خاصة أن ما حدث جرى أمام ما لا يقل عن خمسين من نجاري السفن البيض الذين لم يفه واحد منهم بكلمة واحدة طيبة، بل صاح بعضهم قائلا: اقتل الزنجي الشيطان اقتله، اقتلوه فقد ضرب شخصا أبيض! وهكذا كانت فرصتي في النجاة هي التوقف عن ملاحقتهم.

هكذا نجوت من ضرب جديد، وبصراحة أكثر فإن ضرب الرجل الأبيض يعني موتي بقوانين لينش- نسبة إلى القاضي شارلز لينش الذي ترأس محكمة غير قانونية لمنع نشاط المحافظين من الولايات المتحدة، لكن التعبير أصبح يستخدم للدلالة على تنفيذ حكم الإعدام أو غيره من العقوبات دون محاكم فيقال اللينشية lynching - وكان هذا هو القانون في ترسانة مستر جاردنر، كما أنه يوجد الكثيرون خارج ترسانة مستر جاردنر مستعدين لتنفيذه.

توجهت مباشرة إلى البيت وحكيت القصة للسيد هوف، وإنني لسعيد أن أقول عنه هو الرجل غير المتدين، إنه عاملني بطريقة سامية بالمقارنة بما فعله أخوه توماس في ظروف مماثلة، لقد استمع بانتباه إلى القصة كلها من بدايتها حتى نهايتها الوحشية، وأبدى كثيراً من دلائل الغضب الشديد، في الوقت الذي ذاب فيه قلب سيدتي التي كانت مرة شديدة الرقة، شفقة من جديد، لقد حركت عيني الجاحظة والدم الذي يغطي وجهي، دموعها، فاتخذت مقعدا جواري وأخذت تغسل الدم عن وجهي، وبرقة أم، عصبت رأسي وغطت عيني الجريحة بقطعة رقيقة من لحم البقر الطازج! كان هذا تقريبا تعويضا عن آلامي، فها أنذا أرى سيدتي القديمة التي كانت عطوفا ذات مرة، تتجسد فيها الرقة وطيبة القلب من جديد.

لقد كان مستر هوف غاضبا بحق، وعبر عن مشاعره بصب اللعنات على رؤوس مرتكبي الجريمة، وبينما كنت أتحسن

شيئا فشيئا صحبني إلى مستر واطسون، أحد الوجهاء في بوند ستريتليري ما يمكن عمله، سأل مستر واطسون عن الذين رأوا الهجوم على، أخبره مستر هوف أن ذلك حدث في ترسانة مستر جاردنر في وضح النهار حيث كان هناك عدد كبير من الرجال يعملون، ثم قال وهكذا وقعت الحادثة ولم يسأل أحد عن مرتكبيها، وكانت إجابة مستر واطسون أنه لا يستطيع عمل شيء في القضية إذا لم يأت بعض الرجال البيض للشهادة، ولم يجد مبررًا على كلامي، وقال إنني إذا قتلت في حضور ألف من الملونين فإن شهادتهم لا تكفي للقبض على واحد من القتلة، وفي الحال وجد مستر هوف نفسه مجبرا على القول بأن هذا وضع سيء جدًا للأمور، وبالطبع كان من المستحيل أن نحصل على رجل أبيض واحد يتطوع بشهادته لصالحي وضد الصبية البيض، وحتى لو وجد من يتعاطف معي فلن يكون مستعدًا لمثل هذا العمل، فهذا يحتاج درجة من الشجاعة غير معروفة عند البيض حيث كان أقل مظهر إنساني يتخذ في ذلك الوقت إزاء شخص ملون يكون محل استنكار كبير، مثله مثل الدعوة لإلغاء الرق التي كان اسمها يثير الفزع، لقد كانت شعارات أولئك الناس ذوي العقول الدموية في تلك الأيام هي اللعنة على دعوة إلغاء الرق اللعنة على الزنوج، ولم يكن هناك شيء يمكن عمله إذا ما كنت قتلت، هكذا كانت، وهكذا تبقى، حالة الأشياء في المدينة المسيحية بالتيمور.

حين وجد مستر هوف أنه ليس بإمكانه الحصول على حقي،

رفض أن يتركني أعود مرة ثانية إلى مستر جاردنر، أبقاني لنفسه واعتنت زوجته بجروحي حتى استعدت صحتي تماما، حينئذ أخذني إلى الترسانة التي يعمل فيها ملاحظا في خدمة مستر والتر برايس حيث بدأت حالاً في تعلم الجلفطة، وسرعان ما تعلمت فن استخدام مطرقتي الخشبية مع الحديد، حتى أنني خلال عام واحد من مفارقتي لمستر جاردنر أصبحت قادرًا على أن أحدد لنفسي أعلى أجر يقدم إلى أكثر العمال خبرة.

أصبحت الآن بعض الأهمية عند سيدي، فأنا أحضر له كل أسبوع ستة أو سبعة دولارات وأحيانا تسعة، أصبح أجري دولارًا ونصف عن اليوم الواحد، بعد أن تعلمت الجلفطة كنت أبحث بنفسي عن العمل، وأحدد العقد، وأجمع النقود التي أكسبها، أصبح طريقي أكثر سلاسة عن ذي قبل وأصبحت ظروفي أكثر راحة، وكنت حين لا أجد عملا في الجلفطة لا أعمل شيئا آخر، وتعود التصورات القديمة عن الحرية تستحوذ عليّ.

خلال عملي مع مستر جاردنر كنت غارقا في تلك السلسلة من التوترات، ولم أكن قادرًا على أن أفكر في شيء إلا حياتي، وفي تفكيري في حياتي تقريبا أنسى حريتي، لقد راقبت هذا في نفسي خلال خبرتي مع العبودية، فحيثما تتحسن ظروفي لا تزيدني رضا، بل تزيد فقط من رغبتي في أن أكون حرًا، وتجعلني أفكر في التخطيط لاكتساب هذه الحرية، أدركت أنه كي تصنع عبدًا قانعا فمن الضروري أن تصنع عبدًا لا يفكر،

مـن الـضروري أن تغـرق رؤيتـه الأخلاقيـة والعقليـة في الظـلام، وبقـدر إعـدام قـوة العقـل لـن يكـون قـادرًا عـلى اكتشـاف أي عيـوب في نظـام العبوديـة، بـل سيشـعر بالعبوديـة وضعـا صحيحـا ويتوقـف عـن أن يكـون إنسـانا.

إننـي أحصـل الآن كـما قلـت عـلى دولار وخمسـين سـنتا كل يـوم، أنـا الـذي تعاقـدت عليهـا واكتسـبها، لقـد دُفِعَـت إلى أنـا فهـي إذن وبشـكل صحيـح ملـكي، ولكـن كلـما دار يـوم السـبت وجـاء مسـاؤه كنـت مجـبرًا أن أسـلم كل سـنت مـن نقـودي إلى مسـتر هـوف، لمـاذا؟ ليـس لأنـه هـو الـذي اكتسـبها، ولا كانـت لـه يـد في اكتسـابها، ولا لأني مديـن لـه بهـا، ولا لأنـه يمتلـك أقـل ظـن مـن الحـق فيهـا، ولكـن فقـط لأن لديـه القـوة عـلى إرغامـي عـلى تسـليمها لـه، نفـس حـق القرصـان المُكفهـر الوجـه في أعـالي البحـار.

*****

- 11 -

لقد وصلت الآن إلى ذلك الجزء من حياتي الذي فيه خططت، ونجحت أخيرا في صنع هروبي من العبودية، لكن قبل أن أحكي أيّا من الظروف الخاصة بذلك أعتقد أنه من الصحيح أن أوضح أنه ليس في نيتي توضيح كل الحقائق المتصلة بالهروب، وأسبابي في ذلك يمكن فهمها من الآتي:

أولاً: إذا قدمت تقريرًا يشمل كل الحقائق فمن الممكن- بل من المحتمل- أن تشمل الآخرين المصاعب التي لاقيتها فتفت من عزيمتهم.

ثانيًا: فإن مثل هذا التقرير سيثير- بلا شك- انتباه ملاك العبيد مما يجعلهم يشددون حراستهم على أي باب قد يهرب منه بعض إخوتي الأعزاء الراسفون في القيود.

إن أسفي لعميق لأن هناك ضرورة تكرهني على قمع أي شيء له أهمية متصلة بتجربتي في العبودية، إنه لشيء يبعث السرور العظيم إلى نفسي- بلا شك- أن يحتوي هذا السرد على حقائق عملية تشبع حب الاستطلاع الذي أعرف أنه موجود في عقول الكثيرين لمعرفة كل الحقائق المتصلة بهروبي الناجح، لكن عليَّ أن أحرم نفسي من هذه المتعة، والتطلع

إلى الإشباع الذي قد تقدمه مثل هذه الحقائق، سأترك نفسي تعاني الاتهامات الكبرى التي قد يقدمها بعض الرجال من ذوي العقول الشريرة، بدلا من الفخر بنفسي، وبهذا لا أقع في خطر إغلاق الطريق الصغير الذي قد يحرر أخي العبد نفسه من خلاله من قيود العبودية.

إنني لا أوافق أبدًا على السلوك العام لبعض أصدقائنا من الغرب بخصوص ما أسموه بالطريق السري الذي أعتقد أنهم بإصرارهم المستمر على الإعلانات المفتوحة عنه جعلوه طريقا علنيًا، إنني أفخر بأولئك الرجال والنساء لنبل قدراتهم، وأصفق لهم لأنهم بإرادتهم كانوا مادة للاضطهاد الديني والسياسي الأحمق بسبب مشاركتهم العلنية في هروب العبيد، ورغم ذلك أرى نتائج قليلة لهذا العمل سواء بالنسبة لهم أو للعبيد الهاربين، بل أرى أن الإعلانات الواضحة مصدر شر حقيقي لبقية العبيد الذين يتطلعون إلى الهرب، إنهم لا يفعلون شيئا لتنوير عقول العبيد بينما يفعلون الكثير لتنويرعقول الأسياد، فهم يدفعونهم لمراقبة أعظم، وتركيز أكبر للقوة من أجل حصار العبيد، عليَّ أن أبقي ذلك السيد الذي لا يرحم، جاهلا تماما بوسائل الهرب التي يتبناها العبيد، على أن أتركه يتخيل نفسه محاطا بالجم الغفير من الجلادين المستعدين لالتقاط فريسته المرتعشة من قبضته المميتة، ولتدعه يتحسس طريقة في الظلام، ولتتناسب الظلمة مع جريمته المحلقة فوق رأسه، ودعه يشعر أنه في كل خطوة يخطوها متعقبا العبد

الهارب، فإنما يواجه الخطر المرعب من تحطم رأسه بقوة غير منظورة، دعنا نترك الطاغية بلا عون، ودعنا لا نسلط النور الذي يستطيع به أن يتعقب آثار خطى أخينا الهارب، ولأتوقف عن هذا.

سأعود الآن إلى رواية تلك الحقائق المرتبطة بهروبي والتي تقع مسؤوليتها على وحدى، والتي لن أتسبب بالحديث عنها في أن يعاني أحد أي ألم.

في أوائل عام ١٨٣٨ سيطر على القلق تماما، لم أر أي سبب يجعلني في نهاية كل أسبوع أضع مكافأتي التي شقيت من أجلها في خزانة سيدي، لقد كنت أقدم له النقود فيحصيها وينظر إلى وجهي بوحشية لص ويسأل هل هذا كل شيء؟ ولم يكن يرضى بأقل من السنت الأخير، ثم يعطيني ستة بنسات ليشجعني! لكن كان لهذا أثره العكسي في نفسي، فلقد اعتبرت ما يفعله سلبا لحقي، وكونه يعطيني جزءًا من أجري يثبت لي أنه يعرف أن من حقي المطالبة بها كلها، وكنت أستلم منه المبلغ الضئيل متضايقًا متوجسًا من أن ذلك يخفف عنه تأنيب الضمير، بل ويجعله يشعر بنفسه لصًا ظريفًا شريفا.

نما في داخلي الغضب، وتطلعت حولي أبحث عن سبل الهرب وفكرت في أن أؤجر نفسي منه حتى أحصل على المال الكافي لمهمتي.

وفي ربيع نفس العام أتى السيد توماس إلى بالتيمور لبيع محصوله، فكانت فرصة رجوته فيها أن يسمح لي أن أؤجر

نفسى، لكنه رفض الطلب بلا تردد، وأخبرني أن هذا نوع آخر من التخطيط للهرب، ثم قال إنه لا يوجد مكان يمكن أن أذهب إليه ويعجز عن استعادتي منه، وأنه في حالة هروبي لن يدخر جهدًا في الإمساك بى، ثم أوصاني أن أكون راضيا عن نفسي وأكون مطيعًا، وإنني إذا أردت السعادة الحقيقة يجب أن أتخلى عن أي خطط بشأن المستقبل، ثم قال إنني إذا تصرفت على هذا النحو وأصبحت سويًا فسوف يهتم بي.

لقد كان مستر توماس يريدني حقا ألا أفكر بشأن المستقبل، وأن أعتمد عليه فقط لإسعادي، وأن أتخلى تماما عن طبيعتي كإنسان عاقل، إن النتيجة الوحيدة لذلك هي الرضا عن العبودية، لكن رغما عنه، ورغما عن نفسي أيضا، واصلت التفكير، والتفكير في الظلم الواقع على بالاستعباد، وفي وسيلة للهرب.

بعد ذلك بشهرين أوضحت لمستر هوف ميزة أن يتركني أؤجر نفسى، ولم يكن يعلم بأني طلبت ذلك من مستر توماس وأنه رفضه.

بدَى مستر هوف ميالا للرفض، لكن بعد قليل من التأمل وافق واقترح أن يسمح لي بكل وقتى، وأن أقوم أنا بالاتفاقات وأبحث أنا عن العمل، وبناء على هذه الحرية أدفع له ثلاثة دولارات أسبوعيا، ولا يتحمل هو أي شيء في تكاليف أدوات الجلفطة ولا الطعام والثياب.

كان طعامي يتكلف دولارين ونصف في الأسبوع، وإذا أضفنا

إليه قيمة الثياب وأدوات الجلفطة فإن التكلفة تصبح ستة دولارات أسبوعيا، وهذا يعني أن أوفر هذا المبلغ، بالإضافة إلى ما أدفعه له، بالإضافة إلى ضرورة إحساسي بميزة أنني أعمل لحسابي فيبقي لي شيء أدخره، وسواء وجدت عملا أم لا، أمطرت الدنيا أم سطعت الشمس، على أن أقدم له نصيبه في نهاية كل أسبوع.

إنه إتفاق في صالح سيدي تمامًا، فهو يحرره من كل مسئولية للعناية بي، ويضمن له نقوده، إنه يستفيد من كل ميزات تملك العبد ويترك كل عيوبها لي، لقد وجدت الاتفاق صعبًا لكنني أعتقدت أنه أفضل من الطريقة القديمة، فكرت أنها خطوة نحو الحرية أن يسمح لي أن اتحمل مسؤوليات رجل حر، وصممت أن أمسك بالفرصة، هيأت نفسي لها وكنت مستعدا للعمل بالليل والنهار وبمواظبة وجهد لا يتوقفان، واستطعت أن أدخر قليلا كل أسبوع.

استمرت الحال على هذا النحو من شهر مايو إلى شهر أغسطس حين رفض مستر هوف أن يستمر الاتفاق، كان السبب في ذلك أني تأخرت في دفع نصيبه مساء أحد أيام السبت حيث كنت في عمل يبعد عن بالتيمور بنحو عشرة أميال اتفقت عليه خلال الأسبوع مع بعض الأصدقاء، كنت أعرف أن مستر هوف ليس في حاجة ماسة للنقود تلك الليلة، فضلا عن أن صاحب العمل لم يتركني أعود وحدي قبل أن ينتهي عملنا جميعًا، عندما عدت وجدت مستر هوف غاضبًا

جدًا وغير قادر على كبح جماح غضبه، وقال إنه فكر أكثر من مرة أن يجلدني وأنه يريد أن يعرف كيف جرؤت على مغادرة المدينة دون إذن منه، قلت إنني قد أجرت نفسي منه وإنني أدفع له ثمن ذلك، ولم أعرف أنه كان يجب على أن استأذنه، أربكته هذه الإجابة وفكر قليًلا ثم قال إن ذلك لن يتكرر، وأنه يعرف ما سأفعله بعد ذلك وهو الهرب، ثم أمرني أن أحضر أدواتي وثيابي إلى البيت فورًا، فعلت ما أمرني به ثم أمضيت الأسبوع التالي كله بلا عمل ولا محاولة للبحث عن عمل كنوع من الانتقام منه، في مساء السبت دعاني كالمعتاد ليأخذ أجر الأسبوع، أخبرته أني لم أعمل وليس معي شيء فانفجر الموقف، هاج وأقسم وألح في القسم أن يقيدني، لم أرد بكلمة واحدة ولكني فرحت في نفسي أن تكون الضربة بالضربة، ولم يفعل شيئا بل أخبرني أنه سيجد لي عملا لا ينقطع، في اليوم التالي أدركت ان الموضوع قد انتهى تماما وقررت أن يكون اليوم الثالث من شهر سبتمبر هو يوم محاولتي الثانية للحصول على حريتي.

كان بيني وبين هذا اليوم ثلاثة أسابيع أستطيع خلالها أن أتجهز لرحلتي، مبكرا صباح الإثنين وقبل أن يجد مستر هوف شيئا يشغلني به خرجت ووجدت عملا عند مستر بتلر حيث تقع ترسانة بالقرب من الجسر المتحرك فيما يسمى مجمع المدينة، وهكذا أعفيت مستر هوف من البحث عن عمل لي، في نهاية الأسبوع سلمته ما بين ثمانية وتسعة دولارات

فبدَى مسرورًا جدّا وسألني لماذا لم أفعل نفس الشيء في الأسبوع المنصرم، لم يكن يعرف خططي وأن غرضي من العمل بانتظام هو أن أزيل عنه أية هواجس قد تنتابه في هربي وأية شكوك نحوي، ولقد نجحت في ذلك إلى درجة تثير الإعجاب، لقد جعلته يعتقد أنني لم أكن راضيا قط بحالتي مثل هذا الوقت، وفي نهاية الأسبوع الثاني حملت إليه كل أجري مما أزاد في سروره وجعله يعطيني خمسة وعشرين سنتا- وهي كمية كبيرة جدًا لا يعطيها مالك لعبد- ونصحني أن أصرفها كلها وأخبرته بأنني سأفعل.

لقد مر ذلك كله سهلا حقّا لكن داخله كانت الأزمة، وليس سهلا على أن أصف مشاعري مع اقتراب الوقت، لقد كان لي أصدقاء في بالتيمور، أصدقاء أحببتهم تقريبا كما أحببت نفسي، وكانت فكرة رحيلي عنهم إلى الأبد مؤلمة بشكل لا يوصف، إنني أعتقد بأن آلافا يستطيعون الهرب من جحيم العبودية، ولا يفعلون بسبب الروابط القوية من العواطف تربطهم بأصدقائهم، لقد كانت فكرة ترك أصدقائي تقف في وجه قراري أكثر من أي شيء آخر، زِد على ذلك الرعب من الفشل السابق والهزيمة العظيمة التي منيت بها من قبل والتي عادت تعذبني، كنت على يقين بأني لو فشلت هذه المرة فلا أمل لي وسأظل عبدًا إلى الأبد، ولم يكن الأمر يحتاج خيالًا لأدرك المشاق المفزعة التي على أن أواجهها إذا فشلت، أمامي كان بؤس العبودية وبركة الحرية يسببان لي الارتباك،

الموت والحياة في طريقي، لكنني لم أتزحزح عن قراري، وفي اليوم الثالث من سبتمبر من عام ١٨٣٨ حطمت قيودي، ونجحت في الوصول إلى نيويورك دون أي عقبات من أي نوع، كيف فعلت ذلك؟ أي طريق تبنيتها؟ أي اتجاه أخذته في السفر؟ أي وسيلة نقل؟ ليظل هذا كله بلا شرح للأسباب التي ذكرتها سابقا.

لقد سئلت كثيراً عن شعوري حين وجدت نفسي في ولاية حرة، ولم أكن قط قادرًا على الإجابة بما يرضي نفسي، لقد كانت لحظة الإثارة العظمى التي لم أجربها من قبل، فكرت مرة في أن شعوري كشعور بحار أعزل ينقذه صديق من مخالب قرصان، وقلت مرة لصديق فور وصولي لنيويورك إنني شعرت شعور الهارب من الأسود الجائعة، لكن هذه الحالة العقلية سرعان ما انجلت، ومرة أخرى خيم على شعور بالخوف والوحدة، ففي نيويورك كنت ما زلت معرضا للإعادة إلى عذاب العبودية، كان هذا في ذاته كافيا ليطفئ حماسة بهجتي، في نيويورك أنا في وسط الآلاف من إخوتي من الأطفال لأب مشترك- الملونون من الخلاسيين مثله وهي كلمة لها مغزاها فالآباء البيض لا يعترفون بالآبناء السود، والأب الأبيض قد يكون له عشرات من الابناء السود- ولا أقدر أن أبوح لأي منهم بحالتي التعيسة، كنت خائفا من الحديث لأي شخص خشية أن يكون الشخص غير المطلوب فأسقط في يد محبي المال من الخاطفين الذين كان عملهم هو الكمون في

انتظار أي هارب والوثوب عليه كما تفعل الوحوش الضارية في الغابة وهي تنتظر فريستها، لقد كان الشعار الذي تبنيته حين بدأت رحلتي هو «لا تثق بأحد»، لقد رأيت في كل رجل أبيض عدوًا، وفي كل رجل ملون حالة من عدم الثقة، لقد كان ذلك موقفا من أكثر المواقف إيلاما ولفهمه يحتاج المرء إلى تجربته أو يتخيل نفسه في نفس ظروفه، دعه يصبح عبدًا هاربًا في أرض غريبة سكانها من الخطافين الذين يعملون في ظل القانون، حيث في كل لحظة يتعرض للخوف البشع من أن ينقض عليه مطاردوه مثلما ينقض الثعبان على فريسته، أقول دعه يضع نفسه في موضعي، دون بيت أو أصدقاء، دون مال أو عمل، يحتاج مأوىً ولا أحد يقدمه له، يحتاج طعاما ولا أحد يشتريه له، وفي الوقت ذاته يشعر بأنه ملاحق من الذين لا يرحمون من المطاردين، ظلام شامل أمام عينيه فلا يعرف أين يذهب أو أين يستقر ولا وسائل للدفاع أو الهرب، وفي وسط الوفرة من الطعام تعضه أنياب الجوع، وفي وسط البيوت العامرة لا بيت له، وحوله الشباب والرجال فيشعر كما لو كان بين وحوش ضارية لها شهوة في التهام الخائف الهارب الجوعان مساوية لشهوة وحوش الأعماق حين تلتهم السمك الصغير العاجز الذي تعيش عليه! أقول دعه يضع نفسه موضعي ويقدر تماما المصاعب التي أعيشها، ويتعاطف مع العبد الهارب الفزع من الجلد، والممزق الثياب الشقى.

لكن شكرًا للسماء، فلم أبقَ طويلا في هذا الوضع الضاغط،

لقد انتشلتني منه اليد الإنسانية للسيد ديفيد روجليز الذي لن أنسى أبدًا طيبته ومثابرته، إنني سعيد من فرصة التعبير بأقصى ما تستطيع الكلمات عن الحب والامتنان اللذين أحملهما له، لقد ابتلى مستر روجليز الآن بالعمى وهو يحتاج إلى نفس الأعمال الطيبة التي كان يوما في طليعة المؤدين لها للآخرين، لقد أخذني إلى منزله، وكان وقتها مشغولًا بقضية دارج المشهورة، في الوقت ذاته الذي يقدم فيه النصح لعدد من العبيد الهاربين عن الطريق والوسائل المأمونة لإتمام هروبهم ويقدم لهم المساعدة، وبرغم المراقبة والحصار في كل جانب فلقد كان مستر روجليز عصيا على أعدائه، ناجحا فيما يفعله.

بعد ذهابي معه بقليل سألني عن وجهتي حيث من الخطر بقائي في نيويورك كثيرًا، قلت إنني كنت أعمل جلفاطا وأحب الذهاب حيث أجد عملا، اقترحت كندا لكنه عارضني وقال إنه من الأفضل لي الذهاب إلى نيوبدفورد معتقدًا أنني فيها أجد عملا يناسب مهنتي، في هذا الوقت جاءت (أنّا) زوجتي المرتقبة، وكانت حرة، وكنت كتبت إليها فور وصولي نيويورك رغم عدم وجود مأوى وبؤس حالتي، وأخبرتها بهروبي الناجح ورغبتي في قدومها بسرعة.

بعد أيام قليلة من وصولها دعا مستر روجليز القس ج. و. س. بينينجتون، الذي أدى شعائر زواجي من (أنّا) في حضور مستر روجليز ومسز ميشيلز واثنين أو ثلاثة آخرين وأعطانا وثيقة كتب فيها:

«تشهد هذه الوثيقة بأني ربطت بين فريديرك جونسون وأنا مواري معا كزوج وزوجة في زواج مقدس وبحضور مستر ديفيد روجليز ومسز ميشيلز».

التوقيع

«جيمس. و، س، بينينجتون»

نيويورك في ١٥ سبتمبر ١٨٣٨

بعد عقد القران مباشرة حملنا متاعنا وتوجهنا لنبحر على القارب البخاري جون، و. ريتشموند، إلى نيوبورت في طريقنا إلى نيوبدفورد.

أعطاني مستر روجليز خمسة دولارات وخطابا إلى مستر شو في نيوبورت ليساعدني إذا ما انتهت نقودي في إتمام الرحلة إلى نيوبدفورد، لكن عند وصولنا إلى نيوبورت كان شوقنا كبيرًا لمكان آمن، لذلك أخذنا أماكننا في المركبة على أن ندفع أجرتنا بعد الوصول إلى نيوبدفورد، ولم أذهب إلى مستر شو بالخطاب، لقد شجعنا على ذلك رجلان مهذبان مسافران معنا إلى نيوبدفورد عرفت فيما بعد أن اسم أحدهما هو جوزيف ريستكون، والثاني ويليام. س. تابر، لقد أظهرا في الحال تفهمًا لظروفنا وأظهرا ودّهما، مما جعلنا نرتاح لوجودهما، لقد كان رائعا حقًا أن نلتقي مثل هؤلاء الأصدقاء في مثل ذلك الوقت.

بعد وصولي نيوبدفورد توجهنا مباشرة إلى منزل مستر ناتام جونسون، الذي استقبلنا جيدا وشملنا بكرمه وأبدي هو وزوجته مسز جونسون اهتماما عميقا براحتنا وأثبتا بحق

أنهما جديران باسم «محرري العبيد»، كان سائق المركبة قد حجز حقيبتنا كضمان لأجرته فأخبرت مستر جونسون بذلك فأعطاني في الحال ما يلزم من نقود.

بدأنا الآن نشعر بدرجة من الأمان، ونعد أنفسنا لواجبات ومسؤليات الحياة الحرة، في صباح اليوم التالي لوصولنا أثيرت على مائدة الإفطار قضية أي اسم يجب أن أحمله، لقد كان الإسم الذي أعطته لي أمي هو فريدريك أوجستوس واشنجطن بايلي، ولقد تخليت أنا طويلا عن الإسمين الأوسطين قبل أن أغادر ميريلاند حتى أنني عرفت دائمًا باسم فريدريك بايلي، ويوم أن هربت من بالتيمور حملت اسم ستانلي وفي نيويورك غيرت اسمي من جديد إلى فريدريك جونسون، معتقدًا أن هذا سيكون التغيير الأخير، لكن في نيوبدفورد بدا ضروريًا تغيير اسمي، فهناك كثيرون يحملون لقب جونسون وسيكون من الصعب أن أتميز بينهم، تركت لمستر جونسون حرية اختيار اسم جديد لي على ألا يسلبني اسم فريدريك، إذ يجب أن أتمسك به لأن فيه إحساسا بهويتي، في ذلك الوقت كان مستر جونسون يقرأ «سيدة البحيرة»، وفي الحال اقترح أن يكون اسمي دوجلاس، ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن أحمل اسم فريدريك دوجلاس، وحيث عرفت به بشكل واسع أكثر من غيره من الأسماء فسوف أستمر في حمله كاسم لي.

لقد خاب ظني تماما في المظهر العام للأشياء في نيوبدفورد! لقد كان انطباعي عن الناس وأحوالهم في الشمال خاطئا، فلقد

تصورت بغرابة شديدة حين كنت أرسف في العبودية أن الحياة في الشمال خشنة بالمقارنة بحياة ملاك العبيد في الجنوب، إذا لا يمكن أن تكون بها نفس فخامة وأبهة وراحة الحياة، ولقد توصلت إلى هذه النتيجة من حقيقة أن أهل الشمال لا يملكون عبيدًا، ومن ثم فهم أفقر من أهل الجنوب، ولن يزيدوا في مستوى معيشتهم عن السكان من غير ملاك العبيد في الجنوب، وبشكل ما استوعبت فكرة أنه في غياب العبيد لا توجد ثروة، وهكذا توقعت في الشمال أن أقابل أيادي خشنة شقية بالعمل، وسكانا غلاظا يعيشون في نظام يشبه كثيرًا النظام الإسبرطى، لايعرفون شيئا عن البساطة والفخامة والأبهة وعظمة ملاك الجنوب، هكذا كانت ظنونى، ولكن أي شخص رأي نيوبدفورد يدرك على الفور مدى خطأي.

في عصر يوم وصولي نيوبدفورد زرت الموانئ لألقي نظرة على صناعة السفن فوجدت نفسي محاطا بأقوى الشواهد على الثروة نائمة فوق الأرصفة وسابحة في الجداول، رأيت العديد من السفن من أحسن الطرز في أحسن النظم وأكبر الأحجام، وعلى اليمين واليسار كنت محاطا بالمخازن ووسائل الراحة اللازمة للحياة، أضف إلى هذا أن كل شخص بدَى منغمسا في عمله بلا ضجة كالتي كانت في بالتيمور، لم تكن هناك أغنيات زاعقة تصدر عن المشتغلين في تفريغ وشحن السفن، ولم تكن هنا هتافات عالية من العمال ولكن يبدو الكل هادئًا، مستغرقًا في عمله، يفهم كل منهم دوره وينجزه

بهدوء وجدية تعكس اهتمامه العميق بما يفعله، كما لو كان له معنى كرامته كرجل، بدا هذا غريبا حقا عليّ. ونزلت من الأرصفة دائرًا حول المدينة محملقا في دهشة وإعجاب في الكنائس الرائعة والمساكن الجميلة والحدائق المزدهرة المثمرة عن آخرها التي تعكس مدي الثروة والراحة والذوق والدماثة كما لم تسبق لي رؤيته في ميريلاند المستعبدة.

كل شيء هنا نظيف جديد جميل، وربما لا شيء من المنازل القديمة الفقيرة، ولا أرى حولي أطفالا نصف عراة أو نساء حفاة كما اعتدت أن أرى في هيلسبورو وإيستون وسانت ميشيل وبالتيمور، الناس هنا أكثر صحة وعافية وسعادة وقدرة من أولئك في ميريلاند، كنت سعيدا برؤية الثروة العظيمة ولا أجد فقرًا حولي يحزنني، ولكن أكثر ما أثار دهشتي وسروري كان حال الملونين، كان الكثيرون منهم مثلي هاربين من جحيم العبودية والمطاردة، وجدت عديدًا منهم لما تمضي عليهم سبع سنوات من الحرية يعيشون في أجمل بيوت ويستمتعون بكثير من وسائل الراحة في الحياة بما يفوق متوسطي ملاك العبيد في ميريلاند، ولسوف أغامر بالقول بأن صديقي مستر ناتام جونسون (الذي من أجله أستطيع القول إني كنت جائعا فأشبعني، عطشانا فرواني، غريبا فآواني)، كان يعيش في أنظف منزل ويتناول طعامه على أفضل مائدة، يأخذ ويعطى، يقرأ كثيرًا من الصحف، وأحسن من يفهم الخصائص السياسية والدينية والأخلاقية للأمة بما يفوق تسعة أعشار ملاك العبيد

بمقاطعة تالبوت بولاية ميريلاند، بالإضافة إلى أنه رجل عملي تشقى يديه بالعمل هو ومسز جونسون أيضا.

هنا أيضا وجدت الملونين أنشط روحا مما كنت أتوقع، وجدت بينهم تصميما على حماية بعضهم البعض من الخاطفين المتعطشين للدماء، وحالا بعد وصولي حُكيَ لي عما يوضح هذه الروح، فقد حدث خلاف بين رجل ملون وعبد هارب فهدد الأول العبد بأنه سيرسل لسيده عن مكانه وفي الحال دعي لاجتماع بين الملونين لعمل هام! وأقبل الناس في الموعد المحدد، ورأس الاجتماع عجوز مهذب خطب في المجتمعين قائلاً أيها الأصدقاء، لقد أحضرنا الخائن هنا وأوصيكم أن تخرجوه وتقتلوه، فاندفع عدد من الحاضرين لقتل الخائن لكن بعض الحاضرين أعطاه فرصة الهرب ولم يعد يرى بعد ذلك في نيوبدفورد، بعد هذه الواقعة لم يجرؤ أحد أن يهدد أحدًا لأن العاقبة ستكون الموت.

وفي اليوم الثالث لوصولي وجدت عملا في شحن سفينة صغيرة بالزيت، كان عملاً جديدًا عليّ، وقذرًا وصعبًا، لكنني مضيت فيه بقلب سعيد ويد قوية، إنني الآن سيد نفسي وهذه لحظة عارمة السعادة يفهمها فقط أولئك الذين كانوا عبيدًا يوما، إنها لحظتي أنا وليس هناك السيد هوف يقف متنمرا للاستيلاء على ما أكسبه، لقد عملت ذلك اليوم بسرور لم أجربه من قبل قط، كنت أعمل لنفسي ولزوجتي وهذه نقطة بداية لوجود جديد.

بعد أن انتهيت من هذا العمل بحثت عن عمل في الجلفطة لكن كان هناك موقف حقود من عمال الجلفطة البيض فلم يكونوا يسمحون للسود بهذا العمل. ولقد عرفت هذه الأيام (يقصد وهو يكتب هذه السيرة) أن ذلك موقف انتهى تحت تأثير الجهود المكثفة ضد العبودية، بالطبع لم أجد عملاً ووجدت مهنتي بلا فائدة، فألقيت بملابسي الخاصة بهذا العمل وأعددت نفسي لأقوم بأي عمل أستطيع أن أجده، ولكن مستر جونسون أعطاني- بطيبة- شديدة منشارا وحاملًا وبسرعة وجدت نفسي مزدحما بالأعمال، لم يكن عملي شاقًا جدًا ولا قذرا جدًا، كنت أنشر الأشجار وأجرف الفحم وأحمل الخشب وأنظف المداخن وأدحرج براميل الزيت، وكل ذلك فعلته لثلاثة أعوام في نيوبدفورد قبل أن أصبح معروفًا لعالم الدعوة لإلغاء الرق.

بعد نحو أربعة أشهر من وصولي نيوبدفورد أتاني شاب وسألني ما إذا كنت أرغب في الحصول على جريدة الليبراريتور، قلت نعم ولكن لا أستطيع الإشتراك بها لكوني هاربا حديثا من العبودية ولا أملك من النقود مايكفي، ورغم ذلك أصبحت أخيرا مشتركا فيها، وأصبحت تصلني أسبوعيا وأقرأها كلها بمشاعر يصعب على محاولة وصفها، أصبحت الصحيفة هي غذائي وشرابي، إن روحي لا تزال متأججة وتعاطف الجريدة مع إخوتي في القيود واحتقارها التام لملاك العبيد وبغضها الصادق للرق وهجماتها القوية على المعارضين لإلغاء الرق

أشعل الفرح في روحي كما لم يحدث لي من قبل.

بسرعة بعد مواظبتي لقراءة الليبارتور أصبحت لدي فكرة صحيحة جميلة عن المبادئ والمعايير وروح الإصلاح في الدعوة ضد العبودية، فهمت القضية جيدًا، وفعلت القليل ولكن بقلب طرب، ولم أشعر بسعادتي مثل سعادتي في اجتماع للدعوة لمناهضة العبودية، إنني نادرًا ما أجد ما أقوله في أي اجتماع لأن ما أريد قوله يقوله غيري أفضل مني، ولكني في هذا الإجتماع حول اللاعبودية والذي أقيم في نانتيكوت في ١١ أغسطس عام ١٨٤١ شعرت برغبة قوية في الكلام، شجعني على ذلك كثيرا مستر ويليام. س. كوفين، الرجل المهذب الذي سمعني أتحدث في لقاء للملونين في نيوبدفورد.

كان هذا عبورا حاسما ترددت فيه، الحق كنت أشعر بنفسي كعبد، وكانت فكرة التحدث إلى البيض تثقل عليّ، تحدثت لحظات قصيرة حيث شعرت بدرجة من الحرية وإذا بي أقول ما أريد بسهولة كبيرة، منذ ذلك الوقت وحتى الآن أصبحت منغمسا في الدفاع عن قضية إخوتي، أما بأي درجة من النجاح أو الوفاء فأترك ذلك للذين عرفوا جهدي ليقرروه.

*****

مكتبة
t.me/soramnqraa

ملحق

حين أعيد قراءة ما سبق أجد أنني تحدثت في مواقف عديدة عن الدين بلهجة وطريقة يمكن أن تقودا من يعرفون نظرتي الدينية إلى افتراض أنني معارض لكل دين، ولكي أزيل إمكانية حدوث سوء الفهم هذا، أجد لزاما على أن أسرع بالتفسير المختصر التالي:

إن ما قلته بإزاء- وضد- الدين، أعني به مباشرة ديانة الاستعباد لهذه الأرض، دون أي تداخل مع المسيحية الصحيحة لأنه بين مسيحية هذه الأرض ومسيحية المسيح رأيت أوسع اختلاف ممكن، اختلاف واسع حتى أنك حين تجد إحداهما خيرة طاهرة مقدسة يكون ضروريًا أن تستنكر الأخرى كعقيدة شريرة فاسدة فاسقة، أن تكون مُريدًا لإحدى الديانتين يعني أن تكون عدوًا للأخرى، إنني أحب مسيحية السيد المسيح الطاهرة المسالمة غير العنصرية لذلك أكره مسيحية هذه الأرض الفاسدة المستعبِدة، جالدة النساء، سارقة الأطفال، العنصرية المنافقة.

إنني لا أستطيع أن أجد سببًا واحدًا لأسمي عقيدة هذه الأرض بالمسيحية، اللهم إلا إذا كان ذلك يقوم على الخداع، إنني أراها- عقيدة هذه الأرض- قمة لكل الأخطاء، وأعتي الخدع، ولسرقة ثوب مملكة السماء لخدمة الشيطان، لقد امتلأتُ بالمقت حين كنت أتأمل الأبهة والتظاهر الديني

تتبجح بهما الضمائر المرعبة التي كانت تحيطني من كل ناحية، لقد كان لدينا من يسرق الرجال من أجل القساوسة، ومن يجلد النساء من أجل المبشرين، ومن يسرق الأطفال لأعضاء الكنيسة، لقد رأيت الرجل الذي يجلد العبيد طوال الأسبوع بالسوط الدموي العريض من جلد البقر، هذا الرجل نفسه يصعد المنبر يوم الأحد ويسعى ليكون كاهنا ليسوع الحليم المتواضع، وكان الرجل الذي يسرق ما كسبت يداي كل أسبوع يقابلني يوم الأحد في صورة واعظ يحدثني عن أي طرق أسلكها في الحياة وأي طريق للخلاص، نفس الرجل الذي باع أختي لاستغلالها في الدعارة كان يقف أمامي مدافعا تقيا عن الطهر، ونفس الرجل الذي أعتبره واجبًا دينيًا مقدسًا أن يقرأ الإنجيل أنكر عليّ حقي في تعلم قراءة اسم الله الذي خلقني، ماذا أقول أيضا؟

لقد كان المدافع المتدين عن الزواج كعلاقة مقدسة يسرق الملايين ويدفعهم إلى خِراب النجاسة بالجملة، وكان المدافع المتحمس عن قداسة العلاقات والروابط العائلية هو نفسه الذي يشتت عمل الأسر نافيا الأزواج عن الزوجات، والأبناء عن الآباء، والإخوة عن الأخوات، مخلفا الكوخ الفقير خرابا، والبيت الصغير يبابا، لقد رأيت اللص يعظنا ضد السرقة، والزاني يعظنا ضد الزنى، وكان بيننا رجال يباعون ليتم بناء الكنيسة ونساء تباع لتدعيم حملة الأناجيل، وأطفال تباع لشراء أناجيل جديدة تستخدم في التبشير، والكل يحدث من أجل مجد الرب وخير الأرواح البشرية!

نغمة واحدة كانت لدقات جرس المزادات لبيع العبيد ودقات جرس الكنائس، وصيحة العبد مقهور القلب ضاعت وتلاشت في الصيحات الدينية لسيده الورع، لقد كان إحياء الدين وإحياء تجارة العبيد يمضيان جنبا إلى جنب، وسجن العبيد وموقع الكنيسة قريبين من بعضها ونسمع جلجلة القيود والسلاسل في السجن ومزامير الورع والصلاة الخاشعة في الكنيسة، والذين يتاجرون بأجساد وأرواح البشر يجعلون مكانهم بالقرب من الكنيسة ويتعاونون مع رجالها، فالتاجر يقدم الدم ذهبا لتدعيم الكنيسة وهي بدورها تغطي أعماله المميتة بثوب من المسيحية، هنا الدين والسرقة حليفان والشياطين ترتدي زي الملائكة، والجحيم في ثوب الجنة:

إله عادل! وهؤلاء هم سدنة مذبحك
إله حق! وتخنق أياديهم بالصلاة والبركات
أضواء الرحمة

****

أي وعاظ وخطافو بشر هُم؟!
يحمدونك ويسرقون فقيرهم
يتحدثون عن الحرية المجيدة ويسدون الأبواب على ضحايا هم
أي خدم لأغراضهم أيها الإبن الرحيم؟!

الذي آتي ليخلص العبد المنبوذ
والمطرود والمقيد المنهوب

****

تصادق بيلاطس وهيرودس!
وكما حدث قديما اتحد المصلون والحكام الكبار
أيها الرب العادل والقدوس!
هل هي كنيسة تلك
التي تمد المفسد بالعون؟!

إن مسيحية أمريكا هي مسيحية الذين يسلكون طريق المنافقين والفريسيين القدماء الذين حمّلوا أكتاف الناس بالخطايا بينما هم لا نصيب لهم منها، في الوقت الذي حازوا لأنفسهم أسمى الأماكن في الأعياد الدينية، وأعلى المقاعد في المعابد، وناداهم الناس ربي، ربي، ربي لكن يا ويلتاه عليكم أيها المنافقون والفريسيون والمتأملون لأنكم أغلقتم مملكة السماء أمام البشر، لأنكم لم تذهبوا بأنفسكم وتعانون دخولها، إنكم تنهبون المنازل وتطيلون الصلاة، تدورون حول البحار وترسون من أجل الفوز بتابع واحد للكنيسة ثم تجعلونه ابنًا للجحيم، ويل لكم أيها المنافقون والمحتالون والفريسيون لأنكم تدفعون ضريبة العشر من النعناع والأنيسون والكمون وتتجاهلون القانون والعدالة والرحمة والصدق، أنتم أيها المرشدون العميان تدافعون عن بعوضة وتبتلعون جملا، الويل

لكم أيها الفريسيون والمنافقون والمخادعون لأنكم احتفظتم بالمظهر النظيف للأشياء بينما داخلها الفحش والقذارة، والويل لكم أيها الفريسيون والمحتالون لأنكم مثل الأضرحة البيضاء، جميلة حقا من خارجها، ولكن داخلها عظام الموتى والعفن، تدعون الصدق بين الناس وفي قلوبكم النفاق والبغي.

****

لا بد أن ما قدمته صورة مرعبة ومظلمة، لكنني صادق فيها، وهي صادقة بالنسبة للغالبية الطاغية من محترفي المسيحية في أمريكا، حقا إنهم يدافعون عن بعوضة ويبتلعون جملا، فهل هناك شيء صادق في كنائسنا؟ قد يصدمهم اقتراح بانضمام سارق غنم، ولكنهم في نفس الوقت يضمون إلى جمعهم سارق البشر، ويسمونني بالكافر إذا وجدت أنهم مخطئون في ذلك، إنهم فريسيون يتمسكون بالمظاهر الخارجية للدين وفي نفس الوقت يهملون القانون والعدالة والرحمة والصدق كما قلت، مستعدون دائمًا للتضحية بغيرهم دون رحمة، ويحترفون حب الرب الذي لا يرونه بينما يكرهون إخوتهم الذين أمام أعينهم، إنهم يحبون الوثني على الجانب الآخر في الأرض ويصلون من أجل هدايته، ويدفعون المال من أجل إنجيل يصل إلى يده، ومن أجل المصلحين لتعليمه، بينما يحتقرون تمامًا الوثني الذي على أبوابهم.

هـذه باختصـار رؤيتـي لعقيـدة الأرض، ومـرة أخـرى كي أتجنـب أي سـوء فهـم فيهـم فإننـي أعنـي بعقيـدة هـذه الأرض تلـك التـي تكشـف عنهـا كلـمات وأمثـال وحـركات كنائـس المسـيحية في الشـمال والجنـوب التـي تتحـد مـع مـلاك العبيـد، إن مـا يفعلـه هـؤلاء هـو ضـد الديـن ومـن واجبـي أن أعيـد النظـر فيـه.

إننـي أنهـي هـذه الملاحظـات برسـم الصـورة التاليـة لعقيـدة الجنـوب- التـي هـي بالمشـاركة والزمالـة عقيـدة الشـمال- والتـي أؤكـد برجاحـة عقـل أنهـا صـورة صادقـة مـع الحيـاة دون أي تضخيـم أو مبالغـة، لقـد قيلـت كلمـة منـذ عـدة أعـوام قبـل بدايـة الثـورة الحاليـة ضـد العبوديـة مـن قبـل واعـظ ميثـودي مـن الشـمال طـاف في الجنـوب، ووجـد الفرصـة لـيرى أخـلاق النظـام العبـودي وسـلوكه وادعاءاتـه الدينيـة بعينيـه، لقـد قـال أليـس ممكنـا ألا أرى هـذه الأشـياء؟ قـل لي يـا إلهـي، هـل لـن تنقـم روحـي عـلى أمـة مثـل هـذه؟ وعاشـت كلمتـه.

*****

مكتبة
t.me/soramnqraa

صورة هزلية

تعالوا أيها القديسون والخاطئون استمعوا لي
كيف جلد المصلون التقاة جاك ونيل
واشتروا النساء وباعوا الأطفال
ووعدوا الآثمين بالجحيم السفلى
ثم غنوا لمملكة السماء

****

سوف يثغون ويمأمئون مثل الماعز
ويلتهمون الشاة ويذودون عن الهباءات
ويزينون ظهورهم بالمعاطف السوداء الجميلة
ثم يمسكون بزنوجهم من رقابهم
ويذبحونهم من أجل مملكة السماء

****

سوف يعظونك لو حسوت رشفة
ويلعنونك لو سرقت مصباحًا
بينما يسرقون توني العجوز ودول، وسام
من حقوقهم الإنسانية وطعامهم
ويخطفون الرجال من أجل مملكة السماء

****

سيتحدثون عاليا عن مكافأة الرب
ويتعلقون في صورته بحبل
ويصخبون ويلوحون اشمئزازًا بالسوط
ويبيعون أخاهم في الله
مقيد اليدين إلى مملكة السماء

****

سيقرأون ويترنمون بالأغنيات المقدسة
ويصلون طويلًا وبالصوت العالى
ويتحدثون عن الصواب ويرتكبون الخطايا
ويحيّون زحام الإخوة
بكلمات من مملكة السماء

****

أعجب كيف يغني أولئك القديسون
أو يمدحون الرب على جناح السوط
الذي يزأر ويصخب وهو يجلد ويلدغ
ملتصقا بعبيدهم وشياطينهم
في مملكة الضمير الآثم

****

سوف يحصدون الدخان والذرة والشيلم
ويسوقون ويسرقون ويخدعون ويكذبون
ويرفعون الكنوز عاليا

بالجلد والسوط الطائر
أملا في مملكة السماء

****

سوف يشجّون رأس توني العجوز
ويعظون ويزأرون كالثورالهائج
أو يصلون كأتان حمقاء
ثم فجأة يمسكون بجاكوب العجوز
وينسفونه من أجل مملكة السماء

****

سارق البشر المداهن المجعجع ذو الزبد على شفتيه
الذي يعيش على لحم الضأن والعجل والبقر
والذي لا يقدم الراحة أبدًا
للمحتاجين السود أبناء الأحزان
كان كبيرًا في مملكة السماء

****

لا تحبوا الدنيا
قال الواعظ وغمز بعينه وضرب جبهته
ثم أمسك بتوم وديك ونيد
وحرمهم لحمهم وثيابهم وخبزهم
حتي يحبوا مملكة السماء

****

تحدث واعظ آخر منفحمًا في البكاء
عن رجل يتقطع قلبه للآثمين
ثم ربط ناني العجوز إلى سنديانة
وأنزف دمه مع كل ضربة سوط
ثم صلى من أجل مملكة السماء

****

واعظان آخران فتحا فكيهما الحديدين
ولوحا بكفيهما لسارقي الأطفال
وجلس أطفالهم في بهرجة
جوار الزنوج الجوعي
وعقدا اجتماعا لمملكة السماء

****

كل شيء طيب عند جاك يأخذه آخرون
ويسلون غزلهم وفجرهم
أولئك الذين يرتدون الملابس الناعمة كالثعابين
ويحشون أفواههم بالكعك الحلو
وكل هذا يذهب إلى مملكة السماء

****

وأخيرًا فإنني- بإخلاص ونية صادقة- آمل أن يفعل هذا الكتاب الصغير شيئًا في اتجاه تركيز الضوء على نظام العبودية الأميركي، ويعجل باليوم السعيد الذي يتحرر فيه الملايين من

إخوتي المقيدين، وإنني أعوّل- بصدق- على قوة الحق والحب والعدل للنجاح في جهودي المتواضعة، وبخشوع أعاهد نفسي من جديد على القضية المقدسة، وأوقع بنفسي.

فريدريك دوجلاس

لين - ماساشوستس

٢٨أبريل ١٨٤٥

مكتبة
t.me/soramnqraa

NARRITAVE OF THE LIFE OF FREDRICK DOGLASS

مذكرات عبد أميريكي

قصة حياة فريدريك دوجلاس

ترجمة: إبراهيم عبد المجيد | تقديم: وليم اللويد جاريسون

"كنا نعمل في كل الأوقات، والجو لا حار جدًا علينا، ولا بارد جدًا حولنا، ولا مطر ولا جليد ولا برد، يصعب علينا العمل فيه، عمل، عمل، عمل، في النهار والليل، أطول الأيام هو أقصرها، وأقصر الليالي كانت أطولها، كنت في البداية لا أتحمل، ولكن عدة أشهر من هذا الحال روضتني، لقد نجح مستر كوفاي في ترويضي، روض جسدي وروحي ونفسي، انكسرت مرونتي الطبيعية، لغتي العقلية، ميلي للقراءة، انطفأت الشرارة المبهجة التي لمعت أمام عيني، أنغلق عليّ ليل العبودية الأسود. أصبحت رجلًا تحول إلى دابة!".

***

في هذا الكتاب إحدى الشهادات الأولى التي اشتهرت في أميركا عن عالم العبودية، المؤلف فريدريك دوجلاس، الذي كان واحدًا من العبيد الذين نجحوا في الهرب من الولايات الجنوبية إلى الولايات الشمالية، كان ذلك في منتصف القرن التاسع عشر، وفي الشمال أسهم النضال ضد العبودية وصار وزيرًا بعد الحرب الأهلية، في كتابه هذا مزيج من معاناة العبيد والشوق إلى الحرية، هنا تجربة عظيمة وشهادة إنسانية عن الحرية، ومن أجلها كانت هي الأشهر في العالم.

بيت الياسمين للنشر والتوزيع www.byasmin.org
ISBN 978-9-77640-294-2
@BaitElyasmin @BaitElyasmin @Bait.elyasmin.books @BaitElyasmin
بيت الياسمين للنشر والتوزيع
9 789776 402942